عبد الرحمن السعدى

عصره — وكتابه « تاريخ السودان »

بقلم : احمد فؤاد بليغ

تاريخ السودان الغربى من المراجع العربية

كان الجغرافيين والرحالة والمؤرخين العرب، منذ القرن التاسع الميلادى ، فضل الريادة فى مجال استكشاف القارة الإفريقية ، والبحوث والدراسات المتعلقة بها . لقد كانوا يخترقون صحراء القارة ، ويتجشمون الصعاب ، ويتعرضون للمخاطر ، بصحبة قوافل التجارة والدعاة والعلماء سعيا وراء كشف النقاب عن المجهول . ومنذ القرن السادس عشر بدأ العلماء من أبناء القارة أنفسهم ، وبخاصة أبناء إفريقية الغربية الذين يعنوننا فى هذا المقال ، يكملون الرسالة ، ويسجلون تاريخ وتراث بلادهم .

ولم يعرف الرحالة الأوربيون طريقهم إلى القارة إلا مع «بزوغ فجر الاستعمار» ، وقد انتشرت حركتهم فى الأساس مع مطلع القرن الثامن عشر . ولا يستطيع هؤلاء أن يغمطوا الرحالة والجغرافيين العرب ، والمؤرخين من أبناء المنطقة ، فضل السبق إلى هذا المجال . بل إن ما كتبه الأخيرون يعد مرجعا رئيسيا لكل الدراسات الأوربية فى القارة الإفريقية ، التى تتناول الفترة ما بين القرن التاسع وأوائل القرن التاسع عشر .

وبذا يمكن أن نقسم المراجع العربية القديمة التى تتناول هذه الحقبة من تاريخ إفريقية الغربية إلى قسمين رئيسيين : مؤلفات المؤرخين والرحالة العرب منذ القرن التاسع إلى نهاية القرن الخامس عشر ، مؤلفات علماء المنطقة الذين لم تكن لديهم لغة مكتوبة غير العربية ، والذين كانوا جميعا من المسلمين بالضرورة ، ويغطى هؤلاء الفترة التى تمتد إلى أوائل القرن الماضى .

وترجع أهمية مؤلفات القسم الأول إلى أنها مؤلفات فريدة في هذا المجال . فقد كتبت فى فترة كانت أحوال هذه المنطقة مجهولة لغيرفيهاالرحالة والجغرافيين العرب ، كما تمد المصدر الرئيسى لتاريخ دول ازدهرت فى المنطقة مثل دولة غانة القديمة ودولة مالى الإسلامية . ونخص بالذكر هنا : الفرازى ، الفلكى العربى ، الذى كان أول من ذكر غانة وعدة بلدان إفريقية من المؤرخين العرب قبل ١٨٥ هـ (٨٠١ م)، وابن عبد الحكم (١٨٨ — ٢٥٧ هـ ، ٨٠٣ — ٨٧١ م)فى فتوح مصر والمغرب، ابن حوقل (— ٣٦٧هـ ، — ٩٧٧ م) فى المسالك والممالك (كتاب صورة الأرض) ، المسعودى (٢٨٧ – ٣٤٦ هـ ، ٩٠٠ – ٩٥٧ م) فى مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أبو عبيد البكرى (٤٣١ – ٤٨٧ هـ ، ١٠٤٠ – ١٠٩٤ م) فى المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من المسالك والممالك) ، الإدريسى (٤٩٥ – ٥٦٣هـ ، ١١٠٠ – ١١٦٦ م) فى نزهـــة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ياقوت الحموى (٥٧٤ – ٦٢٥هـ ، ١١٧٨ – ١٢٢٨ م) فى كتاب معجم البلدان ، أحمد بن فضل الله العمرى (٦٩٩ – ٨٧١ هـ ، ١٣٠٠ – ١٣٨٤ م) فى مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ابن بطوطة (٧٠٣ – ٧٨٠ هـ ، ١٣٠٤ – ١٣٧٨ م) فى تحفة الأنظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار ، ابن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٩هـ ، ١٣٣٢ – ١٤٠٦م) ،فى العبر وديوان المبتدأ والخبر ، القلقشندى(٧٥٤ – ٨٢١هـ،١٣٥٣ –١٤١٨ م) فى صبح الأعشى،المقريزى (٧٦٥–٨٤٦هـ ، ١٣٦٤ – ١٤٤٢ م)فى مؤلفاته العديدة ؛ ليو الإفريقى (– ٩٥٩ هـ ، ١٥٥٢) فى وصف أفريقيا ، وغيرهم كثيرون .

وقد غطى المستشرق الروسى الكبير ، اغناطيوس كراتشكوفسكى ، هذه الفترة تغطية كاملة،وقدم عرضا شاملا ومثيرا للرحالة والجغرافيين والمؤرخين الذين برزوا

فى خلالها ، وذلك فى سفره العظيم تاريخ الأدب الجغرافى العربى (١) .

كذلك قام الدكتور صلاح المنجد ، بالاتفاق مع حكومة مالى ، بإعداد كتاب قيم بعنوان ، مالى والجغرافيين العرب ، جمع فيه من مؤلفات هؤلاء الجغرافيين والمؤرخين قدرا كبيرا من المقتطفات المتعلقة بدولة مالى الإسلامية ، وبخاصة زيارة منساموسى لمصر فى أثناء ذهابه للحج .

أما القسم الثانى فنقول عنه إن الكتابة بالعربية ، والتأليف بها ، قد عرفا بهذه المنطقة فى أثناء قيام دولة المرابطين، ونهوضها بغزو مملكة غانا الوثنية القديمة (٤٧١ - ٤٧٥ هـ ، ١٠٧٨ - ١٠٨٢ م) ، أى فى فترة انتشار الإسلام بالمنطقة ، ونشير هنا سريعا إلى أبرز من كتبوا بالعربية ، وبخاصة المؤرخين الإفريقيين الذين سجلوا تاريخ بلادهم: أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى (-٩٠٩ هـ ، -١٥٠٤م) الفقيه التلمسانى الأصل ، والداعية والمجاهد الشهير ،الذى ألف كثيرا فى علوم الفقه ، وفى شرح أركان المذهب المالكى ، والذى أفاد المصلح الإمام الشيخ عثمان دان فوديو كثيرا من مؤلفاته وآرائه ، محمود كعت (٨٧٣ - ١٠٠٢ هـ ، ١٤٦٨ - ١٥٩٣ م) ، العالم والإمام الكبير ، صديق أسكيا الحاج محمد ومستشاره الأمين ، ومؤرخ دولة السنغى ، وصاحب المؤلف الذائع الصيت تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس (٢) ، أحمد بابا التمبكتى (٩٦٠ - ١٠٣٦ هـ ،

---

(١) قام بنقل هذا الكتاب إلى العربية (من اللغة الروسية مباشرة) الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ، وتولت نشره « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ، تحت إشراف الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

(٢) حقق هذا الكتاب ، ونقله إلى الفرنسية ، وعلق عليه ، وقدم له ، المستشرقان الفرنسيان هودا وديلافوس ، ونشرته « المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية » فى عام ١٩١٣ ، فى طبعتين عربية وفرنسية . وأعادت اليونسكو طبعه مصورا فى مجلد واحد يضم الطبعتين العربية والفرنسية فى عام ١٩٦٤ .

١٥٥٣ - ١٦٢٧ م) ، أ كثر علماء المنطقة مهابة وجلالا وتضلعا في الفقه ، تربو مؤلفاته على الأربعين ، وفي طليعتها نيل الابتهاج بتطريز الديباج (٣) ، وهو معجم سيرة يؤرخ لعلماء المنطقة ورجالها البارزين، عبد الرحمن السعدي (١٠٠٤- ه ١٥٩٦ - م) ، صاحب تاريخ السودان (٤) ، الحاج سعيد وآخرين ، أصحاب تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان (٥) الذي يعد تكملة لكتاب تاريخ السودان ، الشيخ عثمان دان فوديو (١١٦٧ - ١٢٣٢ ه ١٧٥٤ - ١٨١٧ م) زعيم قبائل الفولاني ، وقائد البعث الإسلامي بإفريقية الغربية في أواخر القرن الثامن عشر ، وضع كتبا كثيرة في الفقه لدينا منها إحياء السنة وإخماد البدعة (٦) ، الشيخ عبد الله (١١٨٠ - ١٢٤٥ ه ، ١٧٦٦ - ١٨٢٩ م) شقيق الشيخ عثمان ، وصاحب كتاب تزيين الورقات (٧) ، محمد بلو (١١٩٥ - ١٢٥٣ه - ١٧٨١ - ١٨٣٧م)

---

(٣) حققه ونشره عباس بن عبد السلام بن سقرون ، القاهرة في عام ١٣٥١ ه على هامش الديباج المذهب لابن فرحون .

(٤) حققه ، ونقله إلى الفرنسية ، وعلق عليه ، وقدم له ، المستشرق الفرنسي هودا ، ونشرته « المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية » في عام ١٨٩٨ ، في طبعتين منفصلتين عربية وفرنسية ، وأعادت اليونسكو طبعه مصورا في مجلد واحد يضم الطبعتين العربية والفرنسية ، وذلك في عام ١٩٦٤ .

(٥) حققه ، ونقله إلى الفرنسية ، وعلق عليه ، وقدم له ، المستشرق الفرنسي هودا ، ونشرته « المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية » في عام ١٩٠١ ، في طبعتين منفصلتين عربية وفرنسية .

(٦) نشرته الإدارة العامة للثقافة بالأزهر في عام ١٩٦٢ ، وقام بتحقيقه أصحاب الفضيلة المشايخ طه الساكت وحافظ محمد الليثي وعبد الرحيم فرج الجندي المفتشون بالأزهر .

(٧) نشرته مطبعة جامعة إبادان بنيجيريا في عام ١٩٦٣ ، وقام بتحقيقه ، ونقله إلى الانجليزية ، والتقديم له ، والتعليق عليه ، المستشرق الانجليزي م . هيكست الأستاذ بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ، التابعة لجامعة لندن ، ونائب مدير مدرسة الدراسات العربية بكانو سابقا .

ابن الشيخ عثمان ،والجد الأكبر لأحمد بلو رئيس وزراء نيجيريا الأسبق، وصاحب كتاب إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور (٨) ، وغيرهم كثيرون .

وقد كان حرص المستعمرين شديدا للغاية ، لأسباب يضيق الحيز عن ذكرها ، على الاستئثار بهذا التراث القيم، فبذلوا ما فى وسعهم لجمع مخطوطاته ونقلها إلى مكتبات ومتاحف بلادهم مثل المتحف البريطانى والمكتبة القومية بباريس. كما نشطت الجمعيات والمعاهد الخاصة بالدراسات الإفريقية ، وأسهمت فى تحقيقها ونشرها ، ولا سيما ما اتصل منها بتاريخ المنطقة . ومع ذلك ما زالت توجد على الأرض الإفريقية أكداس من هذه المخطوطات، وبخاصة فى المعهد الفرنسى للاثار بدكار (بالسنغال)، وفى جامعة إبادان ومكتبة مدرسة الشريعة بسكتو ومكتبة كانو (بنجيريا) .

ونلقى فيما سيأتى نظرة سريعة على تاريخ دولتى غانة الوثنية ومالى الإسلامية ، ثم نستطرد بشىء من التفصيل فى تاريخ امبراطورية السنغى ، والغزو المراكشى ، الذى ولد عبدالرحمن السعدى بعد وقوعه بنيف وخمس سنوات ، وعاصر جانبا هاما من أحداثه ، والذى أعلن نهاية إمبراطورية السنغى ، وبداية ما عرف فى تاريخ المنطقة « بالفراغ الكبير » ، ذلك الفراغ الذى استمر إلى حين انبثاق الروح القومية، وظهور حركة البعث الإسلامى على أيدى دعاة ومصلحين من أمثال الشيخ الكانمى فى برنو ، والشيخ عثمان دان فوديو بين قبائل الفولانى ، والحاج عمر بين قبائل

---

(٨) نشرت مكتبة لوزاك فى لندن عام ١٩٥٧ ، طبعة مصورة للكتاب تحت إشراف مستر ويتنج ، الحاضر بمدرسة العلوم العربية بكانو ، وذلك عن مخطوط حصل عليه هوتينج من نيجيريا ؛ ثم نشرته وزارة الأوقاف المصرية ، فى عام ١٩٥٦ ، بمناسبة زيارة أحمد بلو ، حفيد المؤلف ، ورئيس وزراء نيجيريا الأسبق ، لمصر ، واشترك فى تحقيقه الأساتذة والمشايخ على عبد العظيم والسيد محمد أبو المجد وطه الساكت وحافظ الليثى وعبد الرحيم الجندى من موظفى الوزارة والأزهر ، مع نبذة عن حياة المؤلف كتبها الشيخ أبو بكر محمود غمى قاضى قضاة شمال نيجيريا .

المالنكة بالسنغال ، عند نهاية القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر .

سقوط دولة غانة الوثنية

تمكن المرابطون فى عام ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) ، تحت قيادة ابن يس ، من إخضاع قبيلتى لمتونة وجدالة ، ثم من السيطرة على سجلماسة . وفى عام ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) قاموا بغزو المركز التجارى المظيم فى قلب الصحراء أودغشت ، وبذا أحكموا قبضتهم على طرق التجارة . ومن بعد ابن يس نذر المرابطون حياتهم ، تحت قيادة خليفته أبى بكر ، بغزو غانة التى كانت تجارتها قد تأثرت بالفعل نتيجة لسقوط أودغشت فى أيديهم . وكانت المقاطعات الشمالية من غانة تسقط ببطء فى أيدى المرابطين ، ولكن ملك غانة ظل مسيطرا على بلده الأصلى ، إلى أن سقطت عاصمته فى عام ٨ – ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) بعد حرب دامت أربعة عشر عاما ، ولم تعد غانة توجد كقوة عظيمة .

قيام دولة مالى الإسلامية

وبعد غانة بدأت دولة مالى الإسلامية . وقد عرف الإسلام طريقه إلى الأسرة الحاكمة فى مالى فى منتصف القرن الحادى عشر ، فى أثناء ازدهار مملكة غانة ، وكان ذلك حينما غزا المرابطون ديار غانة الخارجية فى عام ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) . وبعد ذلك بقرنين بدأ تشييد امبراطورية مالى الكبرى ، عندما بدأ سندياته عهد سلطانه عن طريق المصاهرة ، وإخضاع القبائل المجاورة ، وعندما انعقد لواء النصر لسندياته فى معركة كيسى فى عام ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) . وبلغت هذه الامبراطورية أوج قوتها عندما اعتلى عرشها أعظم حكامها منساموسى ، فى عام ٧٠٥ هـ (١٣٩٥ م) . وقد أحدثت رحلة الحج التى قام بها هذا العاهل العظيم فى عام ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م) ، ومر فى خلالها بمصر فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، دويا كبيرا فى العالم الإسلامى ، كما احتلت مكانا هاما فى مؤلفات مؤرخى ذلك العصر . وبموت منساموسى

موسى فى عام ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) بدأ نجم مالى فى الأفول ، إلى أن كانت بداية القرن السادس عشر ، حينما عادت إلى المكان نفسه الذى نشأت فيه منذ قرون ، إلى الدولة القديمة كنتجابة .

دولة السنغى

وعلى أنقاض مالى قامت دولة السنغى . فثمة مملكة كبيرة كانت قائمة حتى فى أيام عظمة غانة هى مملكة جاو ، التى يشير اليعقوبى إلى أن كل ملوك الزنوج كانوا يدفعون لها الجزية . وكتب المهلبى حوالى عام ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) يقول إن ملكها كان مسلما ، وإنه كانت لديها مساجدها ومدارسها ، فى حين يقول البكرى إن عامة الشعب مع ذلك كانوا وثنيين ، وإن المسلمين وحدهم هم الذين كان بإمكانهم أن يصبحوا حكاما لجاو . بيد أن شعب جاو (السنغى) لم يستطع أن يسيطر على جيرانه إلا عندما ازدادت أهمية طرق التجارة فى المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى ، ولذا لم تبرز دولته إلا فى وقت متأخر . وكلما كانت مالى تتمزق بسبب الفتنه ، كانت قدرة جاو على تأكيد وجودها تزداد وتتدعم .

وقد اتحد السنغى فى عهد أسرة ديا (أو زا كما يقول السعدى) ، واتخذوا كوكيا مركزا لهم على بعد ١٤٠ كيلو مترا من جاو . وكان ديا كوسى (أو زا كسى كما كتبها السعدى) هو الخامس عشر فى سلسلة الحكام ، وأول من اعتنق منهم الإسلام (حوالى ٤٠٠ هـ ، ١٠٠٩ م) . ونقل هذا الحاكم عاصمته من كوكيا إلى جاو . وعرف هذا الحاكم ومن تلاه ، كما يقول السعدى ، بأنه « مسلم دم » ، أى اعتنق الإسلام طوعاً . وفى أيام المؤرخ العربى البكرى فرض السنغى سلطانهم على القبائل المجاورة ، ولكنهم إلى حين غزو مالى لبلادهم لم يكونوا قوة كبيرة . وقد أخذ منسا موسى اثنين من أمرائهم — هما سلمن نار وعلى كلن ، رهينتين لضمان استباب

النظام . وقد استطاع الأميران الفرار فيا بعد، واتفقا على أن تعرف أسرتهما الحاكمة بأسره شي(٩) (أوسن كما يقول السعدى) وشرع علي كلن في دعم استقلال بلاده وتوسيع رقعتها ، ومع ذلك لم يبرز السنغى كقوة كبيرة إلا فى عهد مادع الذى حرر أربعا وعشرين قبيلة كانت تسيطر عليها مالى .

وسار اتساع رقعة بلاد السنغى بطيئا إلى أن كانت أيام سن على ، ذلك الحاكم الجبار القاسى ، الذى اتحد فيه العنصران التوأمان فى هـذه المنطقة ، وهما الإسلام والوثنية ، فأمه كانت وثنية ، وأبوه كان مسلما . وجمع سن على بين فكرة ملك مقدس وفكر زعيم دينى ، واستطاع أن يصبح سلطانا وساحرا فى آن واحد . وفى عهده اتسعت رقعة البلاد ، وسقطت فى يده كلا من تمبكتوا فى عام ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) ، وجنى فى عام ٨٨١ هـ (١٤٧٦) . وقد توفى فى طريق عودته من حملته على الجورما حوالى مام ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، وخلفه ابنه سن بارو الذى رفض اعتناق الإسلام . وقد ثار ضده محمد تورى ، وانتزع منه السلطان ، وتقول الروايات إن ذلك سبب تسمية أسكيا ، ومعناها عندهم « المتغصب » . وأصبح أسكيا هو لقب كل حكام السنغى الذين جاءوا بعد ذلك .وحاول أسكيا محمد تورى، أو اسكيا الحاج محمد الكبير ، إضفاء الشرعية على اغتصابه السلطة ، فسعى إلى الحج ابتغاء الحصول على اعتراف الخليفة به سلطانا ، كما أخذ يجزل العطاء للعلماء والمرابطين ويتقرب إليهم .

وفى مكة أجزل الأسكيا العطايا ، وأقام إحدى التكايا ، وقضى وقته بين العلماء،

---

(٩) جاء فى تاريخ الفتاش ، ص ٤٣ ، أن « معنى شى كى بتند أى خليفة السلطان أو بدله أوعوضه » ، ومن ذلك يفهم أنه كان تابعا لإمبراطور مالى . ويقول هودا وديلافوس فى تاريخ الفتاش، الطبعة الفرنسية ، ص ٧٣ حاشية ، إن معنى الكلمة فى لغة السنغى « يحل محل الرئيس » .

والتقى بالإمام عبد الرحمن السيوطى وتأثر كثيراً بآرائه ، واستطاع إغـراء أسرة من الأشراف بمرافقته عند عودته إلى بلاده . كما قدم الولاء للخليفة العباسى « المتوكل » الذى عينه واليا من قبله على السودان، وبذا أصبح أسكيا محمد الكبير هو السلطان الشرعى للبلاد . وفى عهده إزدهرت مكانة تمبكتو الدينية ، وتدعمت قواعد الإسلام . وكان على اتصال دائم بالداعية والفقية محمد المغيلى ، ويأخذ برأيه فى مسائل الشريعة .

واستطاع ابن أخيه موسى انتزاع السلطة منه فى أخريات أيامه ، بيد أن حكمه لم يدم طويلا (٩٣٥ — ٩٣٨ هـ ، ١٥٢٩ — ١٥٣١ م) فقد خلفه أحـد أبناء أسكيا الحاج محمد الكبير ، الذى جلس على العرش تحت إسم أسكيا محـمـد بونكان (٩٣٨ — ٩٤٤ هـ ، ١٥٣١ — ١٥٣٧ م) وقد عزل بدوره ، ونودى أخوه إسماعيل أسكيا جديدا ، ودام حكمه سنتين وسبعة شهور (٩٤٤ — ٩٤٧ هـ ، ١٥٣٧ — ١٥٤٠ م) اجتاحت أمبراطورية السنغى فى خلالها مجاعة كبيرة . وفى عهد هؤلاء الثلاثة الآخرين ضعفت السلطة المركزية . وانتهت هـذه الفترة بتولى أسكيا إسحق الأول العرش (٩٤٧ — ٩٥٦ ، ١٥٤٠ — ١٥٤٩ م) ، فعمل على إعادة النظام وروح الانضباط إلى الإدارة . وفى عهده واجه السنغى أول تحـد من جانب سلاطين مراكش .

وخلف أسكيا داوود أخاه اسحاق وكان حكمه الذى استمر أربعة وثلاثين عاما (٩٥٦ — ٩٩٠ هـ ، ١٥٤٩ — ١٥٨٢ م) سلسلة من الحملات ضـد الحكام الذين ورث عداءهم لأسرته ، وحقق كثيراً من الانتصارات . وبعد داوود جاء أسكيا الحاج ، الذى حكم أربع سنوات وخمسة شهـور (٩٩٠ — ٩٩٤ هـ ، ١٥٨٢ — ١٥٨٦ م) ، ثم عزله أخوه محمد بانى الذى لم يدم حكمه أكثر من سنة وبضعة أشهر ، وفى عهده اندلعت حرب أهلية وحدثت مجاعة فتكت بالناس .

وقد خلفه أسكيا إسحاق الثانى (٩٩٦ — ١٠٠١ هـ ، ١٥٨٨ — ١٥٩١ م) أكبر أبناء أسكيا داوود .

الغزو المراكشى

كان غزو السودان الغربى موضع تفكير طويل لدى سلاطين مراكش . فقد كان ذهبه يثير خيالهم ، ويلهب أطماعهم ، وبخاصة على ضوء ما كانوا يعتقدونه من أنه ينمو كما ينمو النبات . بيد أنه كانت هناك مشكلة غزو الصحراء ، والخوف من قوة إمبراطورية السنغى ، ومما يمكن أن يؤدى إليه فشل الغزو من انقطاع العلاقات التجارية ، وتدفق الذهب عبر مناطق أخرى . ولذا كثيرا ما كانوا يفضلون الوسائل الدبلوماسية. وكانوا يعتقدون أنه إذا أمكنهم الاستيلاء على تغازة استطاعوا تحقيق السيطرة الاقتصادية على السودان . فتغازة كانت المصدر الرئيسى لاستخراج الملح العالى القيمة فى السودان ، وبخاصة فى تمبكتو ، حيث كان يعادل وزنه ذهبا . بيد أن محاولاتهم كانت تبوء بالفشل المرة تلو الأخرى ، ذلك لأن الطوارق، أصحاب المصالح الحقيقية فى تجارة ملح تغازة ، كانوا يتخذون جانب السنغى ، وكان بإمكانهم الدفاع عن المكان . ولم تسفر هذه التحرشات إلا عن البحث عن مصادر أخرى للملح ، وقد بدأ السنغى بالفعل فى عام ٩٧٠ هـ (١٥٦٢ م) فى استغلال مناجم تاودينى .

وقد انصرفت مراكش حينا عن غزو السودان الغربى ، وذلك لانهما كهما فى صراع مستمر مع مسيحيى الأندلس ، وهو الصراع الذى انتهى بخروج المسلمين من أسبانيا والبرتغال ، وتفكير المسيحيين فى غزو شمال أفريقيا . ومرة أخرى عادت مناجم الملح ، فى عهد السلطان أحمد المنصور ، الشاب الواسع الأطماع ، الذى عرف بالذهبى ، عادت تقوم بدور بارز فى العلاقات بين مراكش والسنغى .

وطوال هذه الفترة كان لمراكش مزية كبيرة على السنغى . فالتجار فى المدن

السودانية كانوا أساساً من العرب ، وبذا كانت توجد بالبلاد طبقة كومبرادورية تسيطر على حياتها الاقتصادية ، وكانت سيطرتها كاملة ، وبخاصة فى المدن ، كما كانت لهم ميزة هامة أخرى ، فأبناؤها يعرفون العربية ، وكانوا ينتمون ، أو يدعون الانتماء ، إلى عائلات الصحابة . ولما كان الملوك وأفراد الطبقات العليا من المسلمين ، فقد كانوا يرحبون بإخوانهم فى الدين الأوسع علما القادمين من الشمال .

وفى عام ٩٨٩ هـ (١٥٨١ م) أرسل السلطان الذهبى حملة على توات هدفها تقدير الصعاب التى تكتنف إرسال جيش كبير عبر الصحراء ، ثم اتبعها فى عام ٩٩٢ هـ (١٥٨٤ م) ببعثة دبلوماسية كبيرة إلى بلاد السنغى لتعرف حالة البلاد ، واستكشاف الطرق وموارد المياه . وخدع الأسكيا فى البعثة ، ورحب بها كبشير بعودة السلطان إلى الاهتمام بالتجارة والثقافة . واستنادا إلى السعدى فإن السلطان أرسل جيشا قوامه عشرون ألفا ، ولكنه هلك فى الصحراء ، وعندئذ قدم إنذارا إلى السنغى يطالبهم بالتنازل عن تغازة والاعتراف بالسيادة المراكشية ، وكان رد أسكيا إسحاق عليه ردا مليئا بالسخرية قوامه حزمة من الأقواس والحراب .

وراح السلطان يتحين الفرصة . وحانت هذه الفرصة فى عام ٩٩٨ هـ (١٥٨٩ م) ، عندما هرب زنجى إلى مراكش مدعيا أنه الأخ الأكبر للاسكيا ، وأنه أحق بعرش السنغى ، وطلب تأييد السلطان له فى مسعاه . وأعد السلطان حملة بقيادة خصى أندلسى يدعى جودر ، وزودها بالبنادق والسلاح وبحاجتها من الخيول والجمال والمؤن . وكان معظم حملة البنادق من الأسرى المسيحيين ، وكانت الأسبانية هى اللغة « الرسمية » للحملة .

وبدأت الحملة مسيرتها فى ١٥ ذى الحجة ٩٩٨ (١٦ أكتوبر ١٥٩٠)م ، وبعد رحلة طويلة شاقة فادحة الخسائر ، استغرقت ١٣٥ يوما ، وصلت إلى إحدى مدن النيجر . ولم يكن السنغى يتوقعون الغزو ، وكانت الصحراء تعطيهم شعورا

كاذبا بالأمان منهم حتى من إتلاف الآبار ، وعندما أفاقوا، وشرعوا فى الاستعداد، كان الوقت قد تأخر كثـــيرا . فالمراكشيون كانوا على الأبواب ، وكان على سهام أسكيا إسحاق أن تواجه حملة البنادق من المراكشيين والأسبان . ورفض إسحاق طلبا من جودر بالتسليم ، والتقى الجيشان فى موقعة تنديبى الشهيرة عـلى النيجر . وعجز السنغى عن الصمود أمام الأسلحة الحديثة ، وسحقت قوتهم . وبينما كان إسحاق يستعد لموقعة أخرى خدعه مستشاره الألفا بو بكر لامبر ، صنيعة المراكشيين، وأقنعه بألا يحارب . فعاد أسكيا إلى جاو مهيض الجناح ، تعوزه أية رغبة فى القتال. واضطر فى النهاية إلى التفاوض مع جودر الذى كان قد دخل جاو .

كان جودر قد تخلى عن أية أوهام بشأن ثراء السودان ، بعد أن رأى حال جاو أمام عينيه ، ولكنه لم يكن مخولا توقيع الصلح ، فأسرع يعرض شروط أسكيا اسحاق على السلطان ، وكان أسكيا قد أبدى رغبته فى الاعتراف بسيادة مراكش ، وفى أن يدفع مائة ألف مثقال من الذهب وألفا من الرقيق ، وفى أن يسمح بتصدير الملح والأصواف ، مقابل الإنسحاب العاجل من السودان . ولـكن السلطان لم يكن مدركا لحقيقة النصر الذى أنجزه جودر ، وكان متبرماً بالنتائج الهزيلة للحملة ، ورأى أن إحداث تغيير بين قادتها ربما يسفر عن نتائج أفضل . وبعث بمحمد بن زرقون، وهو أسير أسبانى بدوره ، ليحل محل جودر ، فى حين كان الأسـكيا عاكفاً على إرضاء جودر بأية طريقة ممكنة . وكانت حالة الجيش المراكشى يرثى لها ، فالمناخ شديد الوطأة ، والأوبئة تفتك برجاله ودوابه . وأشار الأسكيا على جودر بأن يتحرك برجاله إلى تمبكتو ، حيث الأحوال أفضل والمناخ أقل قسوة ، فاستجاب للنصيحة وراح ينتظر رد السلطان .

وترتب على وصول ابن زرقون إفساد خطط كل من الأسكيا وجودر ، ووضع ابن زرقون نصب عينيه نهب أكبر قدر ممكن من ذهب البلاد وثرواتها. وساعدت الانقسامات

بين أمراء السنغي على إيقاع هزيمة أخرى بهم ، وعزل أسكيا اسحاق الثاني ، وحاول أسكيا محمد جاو محله (١٠٠١ — ١٠٠٢هـ/١٥٩١ — ١٥٩٢م) . وكان الأسكيا الجديد بدوره شديد الحرص على السلام ، وحاول استرضاء المراكشيين ، ووفر لهم احتياجاتهم من الطعام والمؤن ، ولكن الباشا المراكشي أصر على أن يقسم الأسكيا يمين الولاء للسلطان في حضرته . ونصحه معاونه الألفا صنيمة المراكشيين بالقبول . وما إن وصل مع حاشيته إلى حضرة ابن زرقون حتى وضعوا جميعا في الاغلال فيما عدا الفا . وعندما جاءت الأوامر من السلطان قطعت رءوسهم جميعاً .

ويشير موت أسكيا محمد جاو إلى إنتهاء مرحلة هامة في تاريخ السنغي ، وبموته أصبحت أمجاد غانة ومالي والسنغي ذكريات ماض ، ولكنها ذكريات ظلت مترسبة في وجدان الشعب . وعرفت القرون الثلاثة التالية « بالفراغ الكبير » كما أصبحت فترة ممالك سريعة الزوال ، وحروب مستمرة ، وغارات من جانب المراكشيين والطوارق . ولم يعرف السودان عند منحنى النيجر طعم السلم مرة أخرى إلا عندما سقطت بلادهم نهائياً في أيدي الفرنسيين .

ومع ذلك لم تتوقف مقاومة السنغي تماماً . فبينما نصب المراكشيون أسكيا عميلا هو أسكيا سليمان ، تراجع السنغي إلى موطنهم الأصلي في « دندى » ، وكان باستطاعتهم الاحتفاظ بالجنوب كله ، ونصبوا عليهم أسكيا نوح بن أسكيا داوود ، وواصل نوح مقاومته للمراكشيين دون إحراز نصر يذكر ، فيما عدا الهزيمة الكبيرة التي أوقعها بهم في بورناي في عام ١٠٠٢ هـ (١٥٩٣ م) .

وواجه المراكشيون المتاعب أيضاً من جانب الطوارق والبمبارا وغيرهم من القبائل ، سواء في الصحراء أو في المدن . ولكنهم بعد أن تغلبوا على ثورات الشعب في تمبكتو وجنى إستداروا نحو القبائل وعاملوهم بقسوة بالغة ، واستطاع ابن زرقون بحيلة دنيئة تجريد أهالي تمبكتو من ذهبهم ونفائسهم وأموالهم ، وجمع من وراء ذلك ثروات طائلة ، وبعد ذلك قام الجنود المراكشيون باغتصاب نساء المدينة وقتل أعيانها .

ومع ذلك لم تكن تمبكتو قد تجرعت كأس المهانة حتى الثمالة . فقد سيق علماؤها، وعلى رأسهم العالم الجليل أحمد بابا ، إلى مراكش مقيدين بالأغلال . وهكذا قضى على الصفوة المتعلمة فى تمبكتو التى كان احمد بابا من أبرز ممثليها .

ولم تهدأ للسلطان ثائرة ، ولم يقنع بالثروات التى نهبت من السودان ، ولا بما قدمه الأسكيا ، وهو مائة ألف مثقال ذهباً ، لقاء انسحاب الجيش المراكشى ، بل كان يرغب فى المزيد . واعتقد أن ابن زرقون لم يرسل له نصيبه كامـــلا ، فبعث منصور بن عبد الرحمن مزودا بتعليمات سرية تقضى بقتله وبأن يحل محله . وترامت الأنباء إلى ابن زرقون الذى فضل أن يموت وهو يقاتل السنغى .

ولم يكن دور جودر قد انتهى بعد . واستغـــل قدرته على التآمر ، وأثار المشكلات أمام الاعتراف بابن عبد الرحمن . ورفع الخلاف إلى السلطان الذى قسم السلطة فيما بينهما :فالسلطة المدنية لجودر ، والإشراف على الجيش لابن عبد الرحمن. وتوالت الأحداث سريعة ، فقد مات ابن عبد الرحمن بعد عشرين شهراً ، وقيل إن جودر دس له السم . وحـل محله محمد تابا الذى قدم من مراكش على رأس جيش صغير . وقدم تابا على تصرف أحمق عندما أعفى جودر من القيادة العسكرية التى كان قد تسلمها بعد موت ابن عبد الرحمن ،وكانت النتيجة أن مات بدوره . بيدأنه على الرغم من النجاح الذى حققه جودر فى سحق محاولة المنسا محمود الثالث ، ملك مالى ، للاستفادة من الفوضى التى أعقبت الغزو المراكشى لدعم مملكته ،إلا أن عمار باشا ، وهو خصى من أصل برتغالى أوفد من مراكش ، نجح فى شغل منصب جودر وإعادته إلى مراكش فى عام ١٠٠٨ هـ «١٥٩٩م» .

ولم يكن باستطاعة مراكش أن تحتفظ فى السودان بقوات تكفى لإقرار السلم فى منطقة السنغى ، فبين عودة جودر ووصول قمر — وهو آخـــر باشا يرسل من مراكش فى عام ١٠٢٧هـ «١٦١٨م» — كان المراكشيون يجلسون فوق برميل من

البارود . وعلى الرغم من أن الباشوات قد استمروا فى تمبكتو ، إلا أن نفوذ السلطان أصبح موضعاً للسخرية ، وأصبح الجيش هو القوة الفعالة ، وكان باشوات تمبكتو يتغيرون بسرعة مزهلة حقاً . وقد حكم بعضهم بضعة أيام ، وحكم عدد آخر بضعة شهور ، والقليل منهم هم الذين امتدت ولايتهم إلى أكثر من عام . وبحلول عام ١٠٤٩هـ «١٦٢٠م» لم يكن نفوذهم يتجاوز تمبكتو .

ولم يحاول المراكشيون التغلغل إلى دندى مرة أخرى ، إلى أن كان عام ١٠٤٥هـ «١٦٣٥م» عندما أوقعوا هزيمة كبيرة بالسنغى ، ومع ذلك فشلوا فى إخضاعهم لسيطرتهم . وفى عام ١٠٥٠هـ «١٦٤٠م» استطاع السنغى اكتساح المراكشيين بمساعدة الجورما . وعلى الرغم من أن السنغى ظلوا يحتفظون بوجود مستقل فى دندى ، إلا أنهم كفوا عن التدخل فى أمور السودان السياسية .

بيد أنه بحلول هذا العام كان الحكم المراكشى قد انتهى حتى من الناحية الإسمية ، ولم تعد الخطبة تلقى باسم السلطان ، ولم يستطع المراكشيون أن يمدوا نفوذهم إلى ماوراء المدن الرئيسية : جنى وتمبكتو وجاو ، وكفوا عن إرسال الجند أو المؤنة ، وتركوا قواتهم هناك تقرر مصيرها بنفسها ، فنشأت أسرة محلية من باشوات تمبكتو تدين بالتبعية الاسمية لسلطان مراكش ، وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد . وقد تعاقب على حكم تمبكتو فى الفترة ١٠٧٠ – ١١٦٣هـ «١٦٦٠ – ١٧٥٠م» مائة وثمانية وعشرون من هؤلاء الباشوات .

لقد كانت الحملة المراكشية هى المقدمة لانهيار القانون والنظام فى السودان . وعلى الرغم من الانتصارات العسكرية التى أحرزها المراكشيون ، إلا أنهم فشلوا فى تأسيس إمبراطورية . ومع ذلك فإن السودانيين فقدوا المبادرة فى ظل القبضة العسكرية ، والتهديد المستمر لحياتهم وأسرهم وممتلكاتهم .... وتضاءلت التجمعات السكانية عندهم إلى قرى لا شأن لها ، وانخفض عدد سكان تمبكتو إلى خمسة

عشر ألفا ، بعد أن كانوا يزيدون على مائتى ألف . وفى زحام ذلك الكرب الشامل تحللت القيم الروحية وتفككك المجتمع .

وقد كان الأثر الهام للحملة المراكشية هو أن نظام الدولة السودانية ، الذى ظل قائما باستمرار منذ تأسيس دولة غانة، لم يعد قائما . وكان الفترة مابين موقعة تندبى وبداية القرن التاسع عشر ،عهد ازدهار الإسلام مرة أخرى، هى فترة «الفراغ الكبير» فى التاريخ السودانى . لقد كانت فترة حاول فيها كل من الموسى والبمبارا والفولانى والطوارق والبربر الاستيلاء على جاو وتمبكتو ، مدينتى السنغى الهامتين ، بيد أن ظهور عصابات المرتزقة التى أخذت تنهب القرى ربما كان الأمر الأكثر بلاء بالنسبة لعامة الشعب .

التنظيم الإدارى فى بلاد السودان

يمكن القول إن إمبراطوريات السودان فى العصور الوسطى كانت دولا أكثر منها تجمعات هائلة من القبائل أدت إليها ، وجمعت بينها ، القوة وحدها ، وإنها كانت دولا ذات تنظيمات عالية الكفاية . ومن الخطأ النظر إلى هذه الدول على أنها دول إقطاعية بالمعنى الذى عرف به الاقطاع فى أوربا ، وإن كان قد وجد بها إقطاع وليد محدود شديد الاختلاف عن الاقطاع الأوربى .

وفى السودان كان النظام العام نوعا من التفوق والسيادة ، فالسلطة العليا كان يعترف بها على هذا النحو ، وكانت الدول متابعة تحتفظ كل منها ببلاطها وجيشها . وكانت الجزية والرقيق هما الأسلوب المتاد لاعتراف الأمراء المهزومين بالإمبراطور سيدالهم ، أى أن سلطتهم كانت تظل دون تحطيم ، ولذا كان أى إضعاف لسلطة الإمبراطور يسفر عن الثورات والحروب المستمرة التى كانت الطابع لتاريخ هذه الدول .

وكان التنظيم الإدارى يختلف من منطقة لأخرى . ففى مالى والسنغى وغيرها كانت الدولة منظمة كوحدة مفردة ، ومقسمة إلى إدارات إقليمية ، وكانت العناصر الاقطاعية فيهما ضعيفة . فالسلطة كانت فى أيدى الأمراء ، أو فى أيدى حكام يدفعون الجزية أو قادة عسكريين .

وكان التنظيم الإدارى عند السنغى بسيطا للغاية . ففى المركز توجد السلطة الامبراطورية ، وحولها تتجمع الدويلات التى تدفع لها الجزية ، وتقدم لها الهدايا، وتساعدها فى حملاتها على الدول الأخرى بالرجال والمؤن . وكان بوسع هذه الدويلات رفع راية العصيان كلما أحست بضعف السلطة المركزية، أو تولى الإمارة فى إحداها أمير نزاع إلى الحرب . وكانت الأقاليم الرئيسية حسنة التنظيم ، ومقسمة إلى مناطق يتولاها حكام . وكان هؤلاء غالباً أمراء من الدم الملكى ، أما إخوة السطان أو ابناء عمومته وكانت سلطتهم على اقطاعاتهم تتوقف على مدى الرضا الملكى، كما كانوا ينقلون من إقطاعة لأخرى .

وكان هذا التنظيم الإدارى يقوم على مستويات ثلاثة . فعند المستوى الأعلى يوجد ثلاثة من نواب الامبراطور الكبار : السكورمينا فارى ، أو السكانفارى، المسئول عن المناطق الشمالية وعاصمته تنسدرم ، الدندى فارى ، نائب الملك فى الجنوب ، الباجانافارى ، نائب الملك فى المناطق الشمالية المتاخمة لمالى . وكان هؤلاء الثلاثة ممن يحوزون دائما الثقة الكاملة للامبراطور . وكان يوجد إلى جانبهم البلما قائد الجيش (كتبت هذه الأسماء فى تاريخ السودان على النحو التالى: كرمن فارى، دندى فارى ، باغن فارى ، بلمع ، ص ٧٢ ، ٧٨ ، ٧٥ ، ٧٧ على التوالى وفى غير ذلك من المواضع). وبذا يمكن اعتبار هؤلاء الأربعة أكبر موظفى الدولة ،وكان بإمكانهم إذا ما اتحدوا أن يطيحوا بالأسكيا . هذا ويضيق بنا الحيز عن تناول المستويين الأدنيين .

وفى امبراطورية السنغى كان الرقيق يشكل أهمية كبيرة فى المستويات الدنيا من الإدارة . وكان المملوكون هم الأشخاص المهمون حقيقة فى الحكومة المركزية ، فقدرتهم على القراءة والكتابة ، وكذلك معرفتهم بالشريعة ، كانتا تمنحانهم ميزة ساحقة . وكان أحدهم يشغل منصب السكرتير الخاص للامبراطور ، أى مستشاره الأمين ، ولذا بدت أهمية الرقيق فى مجالات أخرى . فقد كانوا المشرفون على القصر، ورسل الإمبراطور، وكانوا يشكلون الحرس «البريتورى» والجزء الأكبر من الجيش بما فيه كل الفرق المختارة ، وكانوا يتحكمون فى الإيرادات . وقد استفحل نفوذ الموظفين منهم فى أيام الأساكى الأخيرين .

ولم تكن وراثة العرش عند السنى مقيدة بنظام معين ، وإن كان يشترط فى الامبراطور أن يكون من سلالة مؤسسى الأسرة الإمبراطورية . وكان كبار الحكام والأمراء يطالبون بذلك ، وإن وجدت لذلك إستثناءات عبر التاريخ .وفى مثل هذا المجتمع من الطبيعى أن يكون البلاط هو محور السلطة كلها . وكان الأمراء ومعظم الحكام ، فيما عدا المسئولين منهم عن الحدود ، موجودين فى البلاط .وكان هناك تدرج فى مراتب النبلاء . فالبلما كان له حق الجلوس على سجادة فى حضرة الإمبراطور ، وله أن يتترب بالدقيق بدلا من التراب . وكان رئيس الخصيان وثيق الصلة بالإمبراطور ، وله أهميـة كبيرة فى البلاط . ولما لم تكن له أسرة ، فقد كان يعتقد أن نصيحته لسيده لايشوبها غرض .

الاقتصاد والحياة التجارية

كان للتجارة دور كبير فى اقتصاد السودان وسياسته ،وكانت محل اهتمام وتشجيع معظم الحكام . وكان التجار الأجانب يقومون بدور بالغ الأهمية فى هذه التجارة . وكانوا عندما يصلون مع بضاعتهم يتركونها فى مكان عام يقوم أهـل السـودان على

حراسته ، ويحلون فى ضيافة أحد التجار الأجانب المقيمين الذى يرتب الصلة بينهم وبين التجار المحليين الذى يسمون كوسطاء ووكلاء تجاريين . وكان للبيوت التجارية الأجنبية الكبيرة ذات المصالح الدائمة فى السودان مندوبون مقيمون يرعون مصالحها ، مثال ذلك إخوان المقرى المشهورين الذين كان لهم مندوب مقيم فى تمبكتو . وكان التجار الأجانب، وكذلك الجاليات الأجنبية بشكل عام، يعيشون منفصلين فى حى خاص بهم بالمدينة ، ويرأسهم تاجر منهم جرت العادة على أن يكون أكبر التجار المقيمين سنا ، ومن واجبه تقديم المشورة للقادمين الجدد، وله مكان فى مجلس المدينة ليستطيع تمثيل وجهة نظر الجالية . وقد أثنى الأجانب بشكل عام على أمانة السودان وصدقهم ونزاهتهم . وبسبب شدة اهتمام السلطات بالتجارة الخارجية كانت تحرص على نزاهة الإدارة ، وتأمين الطرق ، ووجود نظام سليم للموازين والمكاييل .

أما عن الإيرادات فقد كان ضريبة الأرض هى أساس النظام المالى . ولم تكن الضرائب تفرض على المحصول ، وإنما على الزارع . ففى كانو لم يكن الكوردين — كاسا (ربع الأرض) يفرض على الأرض ، وإنما كان على كل رب أسرة أن يدفع ألفين وخمسمائة كوردى . وفى أمكنة أخرى كانت الضريبة تفرض على الأدوات ، خمسمائة كوردى على الفأس مثلا . وكانت هناك ضرائب أخرى فى كانو وبرنو : سبعمائة كوردى على « الزلعة » من الصبغة ، ستمائة كوردى على كل نخلة ، ضرائب صغيرة على المحصولات التى تباع فى السوق ، الخ وكان يوجد أيضاً نظام محكم للغرامات والرسوم التى تفرض على مواد التجارة . وفى العصور المبكرة لم تكن ضريبة الأرض تمثل عبئا على الفلاحين ، بيد أنها كانت تشتد فى بعض المراحل والعصور ، وفى بعض الممالك ، مما كان يضطر الناس إلى مغادرة أوطانهم .

التنظيم الحربى

لم تكن أساليب الحرب المستخدمة فى السودان تختلف كثيراً عن تلك المستخدمة

فى آسيا وأوربا. فالأسلحة تتكون من الأقواس والسهام والنبال والسيوف ، وإن لم تكن الخيول شائعة بالدرجة التى عرفتها آسيا. وكانت العناية بالخيول كبيرة وقيمتها غالية. وقد عرف السودان الأسلحة الجديدة ، وعن طريق الجمع بن الخيول والاسلحة الحديدية استطاعت إمبراطوريتهم أن تحقق مزايا ساحقة على الوثنيين . ولم تكن جيوشهم تقل كفاية عن أى جيش آخر فى ذلك الوقت، كالم تكن القوارب غريبة عليهم. فسنى على حاصر جنى بأربعمائة قارب ، بل فكر فى استخدام مجرى النيجر للالتفاف حول جناح جيش الموسى. وكان فيهم نظام للفروسية. وكان الفرسان الشجعان، استناداً إلى المصرى ، يكافأون على شجاعتهم بلبس خلاخيل أو قلادات أو أساور من الذهب حسب درجة شجاعتهم .

وكان التنظيم الحربى بسيطاً . فهناك جيش صغير دائم يتكون من رقيق القصر ، ثم هناك القوات التى يقودها أمراء الأقاليم . وكان على كل حاكم أن يقدم عدداً محدوداً من الجنود للجيش الإمبراطورى، وإلى جانب ذلك كان الحكام مسئولين عن حراسة أقاليمهم وتمهد الحدود. اما القوات الإمبراطورية فكانت تحرس المدن الهامة ، وبخاصة تلك الواقعة على طرق التجارة ، والطرق الصحراوية وطرق التجارة الهامة .

الحياة الاجتماعية

كان عدم قيام مدنية فى أفريقيا الغربية إحدى الحقائق الثابتة فى فكر المؤرخين الأوربيين ، وإلى أن كان منتصف القرن التاسع عشر ، عندما عثر على كتابات كثيرة باللغة العربية . وعلى الرغم من أنه لم يكتشف إلى الآن إلا النذر اليسير من المدونات أو من الآثار القديمة ، فإن ما نعرفه عن السودان الأوسط على قدر من الأهمية يكفى لأن نستخلص بعض الاستنتاجات الطيبة عن المدينة فى هذه المنطقة .

ولابد أن نضع فى أذهاننا أنها مدنية من مدنيـــات العصور الوسطى ، أى لا يمـكن مقارنتها إلا بالمدنية التى وجـــدت فى أوربا قبل الثورة الصناعية . ولا يختلف التنظيم الاجتماعى هنا اختلافا ماديا عن التنظيم الاجتماعى فى أى مجتمع من مجتمعات الرقيق أو الأقنان . وفى إمبراطوريات السودان الإسلامية كان الحاكم يعتبر أميراً للمؤمنين ، وكانت السلطة الإمبراطورية تتصل اتصالا وثيقا بالسحر . فلم تـكن الدول الوثنية هى وحدها التى تعبر الملك كائنا مقدسا ، بل كانت تشاركها فى ذلك الإمبراطوريات الإسلامية الشهيرة . ومن المؤكد أن الملك كان فى العصور المبكرة كاهنا أساسا، بيد أن السلطات الـكهنوتية كانت تنتقل تدريجيا إلى آخرين.

ولما كان الملك أو الإمبراطور هو مصدر كل السلطة ، كان البلاط هو المؤسسة الأكثر أهمية فى هذه الدول . ويقدم لنا ابن بطوطة وصفا حيا ، ورواية شاهد عيان ، لبلاط إمبراطورية مالى ، وللاحتفالات المتصلة بالاجتماعات الملكية . وقد أعقب عودة منساموسى من مصر ، عقب أدائه فريضة الحج ، إدخال عادات إسلامية إلى البلاط ، وهى العادات التى استمرت من بعده ، وأضاف إليها أخلافه الشيء الـكثير .

وقد وجد الفجور كثيرا من التشجيع فى الحق الذى كان يتمتع به الحاكم من أخذ بنات الجنود كخطيات .وسبب ذلك أن الجنود كان يعدون رقيقا للامبراطور، فـكان له حق على بناتهم . ولما كان الرقيق هو أساس المجتمع السودانى فقد تفشى الفجور . وكانت الطبقات العليا تحتفظ بحريم كثير . وجرت عادة السلاطين أن يقدموا هبات من الجوارى لـكبار النبلاء والعلمـــاء . ويقول تاريخ الفتاش إنه لم يولد أحد من الأساكى من أم حرة فيما عدا مؤسس الأسرة أسكيا الحاج محمد الـكبير . وعلى الرغم من أن الحريم كان شائعا فإن النساء كن محل تقدير ،ولم

يكن ينظر إليهن كمجرد متاع . وكثيرا ما كانت الملكة الأم والملكة تشغلان مناصب هامة فى البلاط . ويقول ابن بطوطة إن العادة جرت فى بلاط مالى بتتويج الإمبراطورة مع الإمبراطور ، وبأن تشاركه السلطة الامبراطورية . بيد أنه فى إمبرطورية السنغى ، حيث قامت دولة إسلامية متشددة ، لم يكن للملكة الام أو الملكة أى دور على الاطلاق .

وكان يلى طبقة الأمراء والملوك الأتباع طبقة المعلمين التى كان نفوذها يتوقف على ورع الملك أو على سياسته . وقد زاد نفوذهم للغاية فى عهد أسا كى السنغى ، على حين احتل السحرة مكانهم فى الدول الوثنية . ويلى رجـــال الدين التجار ورؤساء الطوائف . وكان رؤساء الطوائف موظفين من قبل البلاط برغم ضآلة مرتباتهم . وكان لدى البعض منهم عدد كبير من الرقيق الذين كانوا يستخدمون إما كحمالين أو فعلة فى الورش . وعلى الرغم من أنهم نادراً ما كانوا يهتمون بالسياسة ، ومن أن دورهم الاجتماعى كان محدودا ، إلا أنهم كانوا يقومون بدور هام فى الحياة الاقتصادية .

ودون هؤلاء بكثير تأتى طبقة التالا كاوا ، وهى أكبر مجموعة فى كل المجتمعات الافريقية ، بل كثيرا ما كان عددهم يتجاوز نصف السكان ، وكانوا بشكل عام أسوأ حالا بكثير من رقيق المنازل لدى الحكام والأمراء . إذ بينما كان باستطاعة هؤلاء الرقيق الارتقاء إلى المناصب العالية ، فإن الفلاحين الفقراء كثيراً ما كانت تستحقهم الضرائب ، وتخرب الحروب المستمرة حقولهم ، كما كانوا يؤسرون فى حملات اقتناص الرقيق ، ويتعين عليهم أن يكونوا فى حذر دائم لا من حكامهم فحسب ، بل من قطاع الطرق من الطوارق والبربر أيضاً .

ويلى الأحرار من هم من نسل الرقيق . فهؤلاء وإن لم يعودوا رقيقاً ، لم

يصبحوا قط أحراراً تماماً . وكانوا يستخدمون عادة فى بيوت أسيادهم ، ويظلون من موالى الأسرة . ويلى الأحرار أيضا أبناء الرقيق ، فهؤلاء يظلون رقيقاً، ويعمل أغلبهم لدى أسيادهم ، ويظلون على أرض السيد لايغادرونها أو يتزوجون إلا بإذنه ، وتصبح زوجة الواحدمنهم جارية لسيده إذا حازت إعجابه . ومن الناحية الأخرى لم يكن باستطاعة السيد بيعهم ، وهكذا كانوا أكثر شبها بالأقنان منهم بالرقيق .

وكانت الزراعة فى السودان تقوم على عمل الرقيق ، وكان الإمبراطور يملك عدداً كبيراً من القبائل ملكية شخصية . من ذلك أن الأسكيا الحاج محمد الكبير حصل بعد انتصاره على سن بانى على أربع وعشرين قبيلة . وقد حرر منها أثنتى عشرة قبيلة بناء على نصيحة عبد الرحمن السيوطى : أما القبائل الاثنتا عشرة التى احتفظ بها فكانت أساسا طبقات محترفة تشتغل بأعمال السخرة .

وثمة عيب آخر كان يشوب التنظيم الاجتماعى السودانى ، عيب نابع من الأسس التى يقوم عليها . إذ كان يفتقر إلى مايمكن أن يسمى إيديولوجية . فالدولة السوادنية بجازها الإدارى وأساليبها الإنتاجية القائمة على الرقيق أصبحت بهذا الشكل أوذاك دولة مغتصبة . لقد قامت على اقتناص الرقيق ، ومن ثم دخل الرقيق والإسلام فى نزاع مستمر طويل . ولم يكن من المصلحة المادية للدولة ، ولا من مصلحة التجار الأجانب الذين يعيشون على تجارة الرقيق ، أن ينتشر الاسلام فى المناطق الاثنية . وقد ترتب على تحريم الإسلام لاستعباد المسلمين أن تباطأ انتشار الإسلام . وفى الصراع بين المصالح التجارية والدينية كان الدين يخرج منتصراً .

وقد شكل الصراع بين الإسلام والوثنية جذور المشكلة الأساسية فى هذا الجزء من العالم الإسلامى . فلو أن الدول الإسلامية مضت بدينها قدما ، لنسفت تجارتها ، بل إطارها الاجتماعى بأسره . ومن ناحية أخرى كان دينها يفرض عليها هداية غير المؤمنين . ولم تحل هذه المشكلة إلا فى القرن التاسع عشر ، عندما تناثرت تجارة

شمال أفريقيا أشلاء ، ولطخت تجارة الرقيق بالعار عبر الأطلنطي . وعندئذ حاول الدعاة والمجاهدون فى كل مكان (من أمثال الشيخ عثمان والحاج عمرو السكاني) إدخال الوثنيين فى الاسلام . ودون أن نضع هذه المشكلة نصب أعيننا يظل تاريخ الإسلام بأسره فى هذه المنطقة ، وعجز الدول الإسلامية عن كسب قبائل مثل الفولاني والبمبارا ، بل قسم كبير من السنغى ، لغزا محيراً .

ويدحض محمود كعت والسعدى النظرية القائلة بأن الإفريقيين كانوا قوما من الهمج العراة ، ويفيضا فى وصف أنواع الملابس التى كانت ترتديها مختلف الطبقات . ولم يكن ارتداء الملابس مقتصرا على المناطق التى كان التأثير الإسلامى سائدا فيها ، بل عرفت الملابس الشديدة التنوع طريقها إلى مختلف المجتمعات الافريقية . وقد عرفت الملابس الحريرية والقطنية الفاخرة المطرزة ذات الالوان الزاهية . وكانت النساء الافريقيات شديدات الاهتمام بشعورهن وزينتهن ، وكن يستخدمن الاصباغ والحناء .

كذلك كان الافريقيون يبدون عناية كبيرة بطعامهم . وكان طعامهم متنوعا يضم الحبوب والبقول والخضروات ولحوم الحيوانات والطيور والاسماك ، كما كانوا مولعين بالشراب ، واشتهر عندهم « عرقى البلح » ، ومشروب أقوى منه يصنع من الاذرة .

الفنون والثقافة والحياة الفكرية والدينية

وكان الفن فى إفريقية الغربية فنا هادفا ، ولم يكن الأفريقيون يهتمون بمذهب الفن من أجل الفن . وكان الفن عندهم يخدم غرضين : أولها توفير سلع الترف للبلاط ، والآخر دينى واجتماعى فى الاساس . وقد برع الافريقيون فى أشغال البرونز والنحاس والعاج والفضة . وقام الفن الافريقى بدور كبير فى توفير الاشياء اللازمة للمعابد ، وفى تصوير تاريخ الشعب وعرض الجوانب المختلفة لتطور المجتمع . ويظهر الطابع

الاجتماعى للفن فى الاقنعة الافريقية الشهيرة التى تعد الدستور الاخلاقى للمجتمع الافريقى، والتى اضطلعت بمهمة الحفاظ على تقاليد القبيلة وتراثها وعاداتها .

وكانت الموسيقى والغناء والرقص فى مقدمة وسائل التسلية . ويقول ليو الإفريقى إن الإفريقيين كانوا مغرمين بالموسيقى والرقص، وإنهم كانوا يقضاون تمضية سهراتهم فى الرقص وإقامة الولائم . ومن آلاتهم الموسيقية الاكثر انتشارا القيثارة والناى الذى يشبه المزمار والطبلة . وكان من وسائل التسلية عندهم التمثيل بالملابس التنكرية والملاكمة ، وكانت الملاكمة أشبه بصراع الحياة أو الموت وكثيراً ما كانت تنتهى بموت أحد المتنافسين .

وكانت المواد التى تتوافر عند بناء البيوت والاكواخ هى التى تحدد طراز البناء . وكان الطمى مستخدما بكثرة لتوافره . وتبنى البيوت فى داخل مجمع كبير محاط بأسوار تتخذ عادة شكلا رباعيا . أما بيوت الزعماء وعلية القوم فتبنى من طابقين . والاكواخ متسديره ذات جدران منخفضة وسقف مخروطى . وكان هناك البيت المستدير الذى تمطيه الجدران المساوية متانة كبيرة ، وتستند أبوابه على مسندين جانبين . أما الغرف الواسعة التى لا يمكن تسقيفها بشدة واحدة فكانت تبنى من الداخل بعقد زائف من الطين يستر الكوابيل الخشبية الحاملة . ولم يكن السودان يجهلون فن البناء بالحجارة ، ومع ذلك لم تكن الحجارة تستخدم على نطاق واسع . ويقول البكرى إنه فى غانة ، فيما عدا القصر، كانت البيوت الوحيدة التى تبنى بالحجارة هى بيوت التجار الأجانب ، وهى بيوت كبيرة الحجم محاطة بالحدائق . وعند عودة منسا موسى من مصر أحضر معه مجموعة من المهندسين المعماريين والحرفين . وفى بعض المناطق كانت البيوت تبنى من الخيرزان . وكانت المدن السودانية مخططة بعناية ، وتتبع نموذجا عاما، وتكثر بها الاسواق وتمتد الاشجار على جانبى

طرقها . وحيث كانت الجياد تستخدم فإن الطرق كانت من الاتساع بحيث تسمح بسير ثلاثة أو أربعة جياد جنباً إلى جنباً إلى جنب دون مضايقات .

وقد ذاع صيت السودان على الدوام بأنه أرض السحر : وتقول الأساطير إن الفراعنة كانوا يحصـــلون على سحرتهم من جاو . وجاء الإسلام فعزز ما به من قصص عن الجان ما كان لدى الأهالى من أساطير . وكانت أم أسكيا محمد من الجان طبقاً للأساطير . ومن المعروف أن السحر قام بدور هام فى فولــكلور هذه المنطقة. وكثيراً ما زعم الأباطرة أنهم سحره متمرسون ، بل إن بعض المجاهدين ، من أمثال الحاج عمر (٢١١٢ — ١٢٨١هـ ، ١٧٩٧ — ١٨٦٤م) ، استطاعوا أن يدخلوا فى روع أتباعهم أن التمائم التى يباركونها يمـكن أن تحمى الجنود من طلقات البنادق . لقد أدى الإسلام إذن إلى دعم الأساطير المختلفة ، بدلا من أن يضعفها .

وقد كان الوثنيون من الوضوح فى هـــذه المنطقة بحيث شبههم العمرى فى مسالك الأبصار بالبقع البيضاء فى جسم بقرة سوداء . ويضيف العمرى أن دولة مالى كانت فى حرب دائمة ضد الـكفار ، ومع ذلك استمرت الوثنية على قوتها فى مالى . ويتفق معظم الجغرافيين والمؤرخين العرب على أن الملك وعلية القوم فقط هم الذين كانوا من المسلمين ، أما عامة الشعب فقط حافظوا على دينهم التقليدى . وقد حاول منساموسى ، فى أثناء وجوده بمصر ، أن يبرر عدم إدخاله الوثنيين فى الإسلام . ولـكنه مع ذلك لم يكن يفرض الجزية على الوثنيين الذين يعملون فى مناجم الذهب خشية أن يؤدى ذلك إلى انخفاض الناتج . ويقول ابن سعيد إن الأباطرة تعلموا من خبرتهم أنهم كلما انتزعوا إحدى مناطق الذهب من أيدى الوثنيين ، وأقاموا الصلاة فيها ، انخفض ناتج الذهب ، على حين يزيد فى المناطق الوثنية المجاورة . ولذا كانوا يؤثرون ترك هذه المناطق فى أيديهم مقابل إتاوة سنوية من الذهب والرقيق .

فلماذا إذن كان يقبل هؤلاء الأباطرة الإسلام ديناً لهم ؟ كانوا يعتنقونه لأنه

كان ذا دلالة اجتماعيـة أكثر منها سياسية ، كما كان وسيلتهم إلى الهيبة والمكانة ، فالتجار القادمون من الشمال كانوا جميعاً من المسلمين ، وكانوا يكثرون الحديث مع الحكام عن قوة الدول الإسلامية واتساع رقعتها. وكان هؤلاء الحكام يأملون عن طريق اعتناق الإسلام أن ينتموا إلى جماعة المسلمين « الأقوياء » . وسبب آخر هو أن الأديان الإفريقية كانت أدياناً قبلية ، وعندما تحقق إحدى القبائل هيمنة سياسية فإن القبائل المهزومة لا يمكن أن تقبل ديانة القبيلة المنتصرة . وقـد أفاد الإسلام فى توحيد الطبقات الحاكمة فى مختلف القبائل ، ولـكن بينما اعتنقت هـذه الطبقات الإسلام فإنها لم تتخل عن دينها القبلى ، وظل أفرادها بمثابة الكهنة الكبار لطقوسهم القبلية . وهـكذا كان الإسلام أساساً دين طبقة عليا ، كما كان ديناً حضرياً فى المقام الأول . وكانت النتيجة أنه لم ينتشر على نطاق واسع ، بل إنه إلى القرن التاسع عشر، عندما نشطت دعوة المجاهدين إلى الإسلام تؤازرهم قوة السلاح، لم يتجاوز عدد المسلمين فى القبائل المسلمة نصف عدد أفرادها . والأمر الغريب أن مجاهدى القرن التاسع عشر يقررون أن شعوب مالى وبرنو، التى تحولت إلى الإسلام منذ القرن الحـادى عشر ، كانت شعوباً وثنية . فما أسباب فشل هذه الشعوب فى الحفاظ على تراثها الإسلامى ؟

إن الإسلام لم يؤد إلى تخلى هذه الشعوب عن المعتقدات الوثنية ، وكانت طريقة إقامتها للشعائر الإسلامية مجرد قشرة رقيقة تخفى تحتها عاداتها وتقاليدها القديمة . بل إن أقساماً واسعة من التكرور ، أقوى المجموعات المسلمة بالمنطقة ، ما زالت تتبع النظام الأمومى . ومع ذلك لم يكن الأمر يخلو من حرص شديد على شعائر الدين . ويذكر ابن بطوطة أن المسلمين كانوا يتزاحمون بشدة على المسجد الجامع فى أيام الجمع لأداء الفريضة ، كما كانوا يحرصون على تحفيظ أبنائهم القرآن.

وقد كانت الطبقات المتعلمة تمارس نفوذاً أكبر بكثير مما يسمح به عدد أفرادها ،

و كان باستطاعتها ان تساند الحا كم او تقطع ضمته ، حاول حا كم تير مثلى اسكيا الحاج محمد أن يكسب جانبهم بكثرة العطايا . وأدرك السلطان الذهبى أنه ما لم يسحق العلماء فلن يستطيع السيطرة على البلاد . وكانت أسباب هذا النفوذ الهائل متعددة . فالعلماء كانوا الحفاظ على سلامة العقيدة ، وكان باستطاعتهم التأثير على المسلمين حتى فى المناطق التى تشتد فيها قبضة الوثنية و السحر . وكان باستطاعة العلماء دائماً استمالة القسم المتعصب من السكان وشن الجهاد . وكان العلماء بوصفهم عماد الطبقة المتعلمة يشغلون مناصب القضاء والمناصب الرئيسية فى الإدارة ، ويسيطرون على مجلس الشورى . وكان منهم الكتاب الذين يسجلون أعمال الملوك ، ويحملون مراسلاتهم إلى الدول الأخرى ، بل كان من المستحيل أن تستمر أعمال الإدارة دون تأييدهم . كذلك كان العلماء يتميزون بتماسك تفتقر إليه الطبقات الأخرى من المجتمع ، إذ كانوا يدركون أنهم كمتعلمين يتفوقون كثيراً على كبار القوم العاديين، وربما كانوا الطبقة الوحيدة التى إذا ما اتحدت أمكنها أن تشكل تحدياً فعالا للسلطة الحاكمة . وكان الأساكى يسعون إلى اعترافهم بهم كى يركضوهم خلفاء ، وجرت عادتهم على أن يسألوهم النصيحة والمشورة فى كل المسائل الهامة ، وكثيراً ما كانوا يأخذون برأيهم .

ولم يكن العلمون كطبقة مبالين بالسياسة ، أو يهمهم فى شىء ما إذا كان الأساكى أو المراكشيون هم الذين يحكمون السودان . وهم لم يكونوا يهتمون إلا بأمرين اثنين : أن يكون طابع الدولة إسلامياً ، وأن تظل امتيازاتهم على حالها . ولم يكن الباشوات المراكشيون ، مقتفين فى ذلك أثر كل الأسبان الذين ارتدوا عن الإسلام ، يعاملون العلماء بالاحترام الذى اعتادوه فى خلال حكم الأساكى ، ومن ثم دخلوا فى نزاع معهم . ومع ذلك ففى البداية كانت هناك أعداد لها دلالتها منهم شديدة الميل إلى المراكشيين ، لاعتقادهم أن سيطرتهم السياسية ستؤدى إلى دعم

الإسلام وتطهيره مما أقحم عليه ، ومن أبرز هؤلاء الألفا بوبكر لامبر الذى نذر نفسه بإخلاص لخدمة المصالح المراكشية .

وقد كوّن العلماء طبقة هامة فى السوادن ، وكان السلاطين يمنحونهم كطبقة الكثير من العطايا . وكانت أفضل وسيلة لتمييز السلطان عن ورعه هى تقديم العطايا من الأرض والرقيق للعلماء . ومن حسن طالعهم أنهم كانوا من بعض النواحى طبقة وراثية . فمحمود كعت ، صاحب تاريخ الفتاش ، كان الصديق الحميم لأسكيا الحاج محمد ومستشاره الأمين . وقد شغل أسلافه وأخلافه وأقاربه كثيراً من المناصب الهامة فى الدولة. كما أن أسرة أقيت كانت أكثر الأسر تميزاً طوال فترة عظمة جاو . وقد استقرت أصلا فى ماسينا ، ثم غادرتها إلى ولاته ومنها إلى تمبكتو . وكان محمد ابن عمر بن محمد بن أقيت قاضياً لتمبكتو، ثم أصبح شيخاً للاسلام بها ، وخلفه ثلاثة من أبنائه — محمد والعاقب وعمر — على التوالى فى منصب قاضى تمبكتو . ومن علمائها البارزين أيضاً أحمد بن محمد بن سعيد حفيد عمر بن محمد أقيت . بيد أن أبرز أفراد هذه الأسرة جميعا كان بلا جدال العالم الجليل أحمد بابا الذى يعد أشهر عضو فى الصفوة المثقفة بتمبكتو ، والذى وضع أسفارا كثيرة لم يصل إلينا منها إلا القليل النادر ، ولذا فهو يعرف بالإشارات إلى أسفاره فى أعمال المؤرخين . ويضيق المقام هنا عن ذكر أسماء أسر أخرى من تلك الأسر الكثيرة التى كان أفرادها يتوارثون المناصب جيلا بعد آخر.

وقد كان السودان الغربى مركزاً عظيما من مراكز الفقه . يقول ليو الأفريقى إن « تجارة الكتب كانت شديدة الرواج هناك ، وكانت تجارتها تحقق أرباحا أكثر مما تحققه أية تجارة أخرى » . فإذا علمنا أن التجارة فى الملح والذهب كانت هى التجارة الأشد رواجا ، أدركنا أن النهم للمعرفة كان شديدا للغاية . وقد كان الأساكى يشجعون العلم ، وكان لدى أسكيا داوود مكتبة رفيعة الشأن ، وكان معتادا ، كما يقول

تاريخ الفتاش ، شراء نسخ من المخطوطات والكتب الجديدة التي تصل إلى السودان. وكان الكتاب فى مجلس الشورى يقومون بنسخ هذه الكتب ، ثم يتولى الأسكيا توزيعها على المتعلمين. كذلك جرت عادة الأساكى على إهداء الكتب إلى المتعلمين ، من ذلك أسكيا داوود الذى اشترى لمحمود كعت نسخة من القاموس المحيط قيمتها ثمانون مثقالا من الذهب .

وكانت الرغبة فى الحصول على الكتب من الشمال يفسرها أن الإنتاج الأدبى ، على الرغم من وجود طبقة متعلمة كبيرة ، لم يكن فى مثل جودته بالمراكز الإسلامية الأخرى . كما أن الكتب التى وضعها علماء السودان لايمكن مقارنتها بتلك التى كانت تصدر عن جامعات الأزهر وفاس والقيروان. وعلاوة على ذلك كانت هناك مسألة اللغة ، فالطبقات المتعلمة فى السودان كانت بارعة فى اللغة العربية — لغة الدين والثقافة والأدب — بيد أن السودان كان يبعد كثيرا عن المراكز العلمية العربية الحيوية . ولذا كان السودان يذهبون إلى فاس والأزهر : يذهبون إلى فاس لدراسة المذهب المالكى (المذهب الوحيد المنتشر فى السودان) ، وإلى الأزهر ومكة لدراسة الفقه والشريعة . وكان العلماء القادمون من الشمال يستقبلون باحترام كبير ، ويمنحون المناصب الهامة . لقد كانت الرغبة تسود علماء المنطقة فى أن يكونوا على صلة مستمرة بآخر التطورات الأدبية والفقهية فى العالم ، فاشتد إقبالهم على مصادرها .

وقد كانت العناية بالتعليم كبيرة فى السودان ، وتحولت المساجد ، وفى مقدمتها جامع سنكورى المشهور ، إلى مراكز للتعليم والفقه . وكان باستطاعة أى أسرة إرسال أطفالها إلى المعلمين لتلقى العلم . بيد أن تكاليف التعليم الباهظة ، وصعوبة الحصول على الكتب ، والعمل الشاق الذى يتطلبه نسخها ، وحفظ القرآن عن ظهر قلب ، والوقت الطويل الذى يتطلبه التمكن من الحديث والشريعة وفقه المالكية ، وكذلك تكلفة السفر إلى الخارج — كل ذلك يعنى أن التعليم كان وقفا على أقلية .

لقد كان الفقهاء مالكيين فى حياتهم وتقاليدهم وإنتاجهم وتأليفهم وتدريسهم ، والشعوب مالكية تتأثر بهؤلاء الفقهاء وتستهدى بهم ، وتراجم العلماء والفقهاء التى وردت فى نيل الابتهاج أو تاريخ الفتاش أو تاريخ السودان تعطنيا هذه الصورة المالكية الصرفة . وكادت مدارس الثقافة الإسلامية فى السودان الغربى أن تكون مدارس مغربية بحتة ، فكأننا فى فاس أو أودغشت أو القيروان . الأسلوب نفسه ، والحياة نفسها، والوسائل نفسها ، حتى طريقة الكتابة تأثرت بالطابع المغربى . فالقلم العربى المستخدم هو القلم المغربى ، والمناهج والكتب المتداولة مناهج وكتب مغربية أساسا : كتب عياض وسحنون ، وشروح ابن القاسم ،وخليل ، وكتب المغيلى والونشريشى، وموطأ مالك، والمدونة والخزرجية، وتحفة الحكام والعباد، إلخ .(تاريخ السودان ، ص ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨، ٤٣ ، ٤٦) . ونماذج التأليف التى ظهرت نماذج مغربية الصورة، وعنوان ذلك الفقيه المشهور أحمد باباوالمؤرخ عبد الرحمن السعدى، اللذين نجدهما فى أسلوبهما وطريقة تناولهما للموضوعات وكأنهما مغربيان .

لقد كانت الثقافة فى السودان الغربى ثقافة مغربية فى أرض سودانية .بيد أن هذا لايعنى أن مدارس السودان الغربى لم تتأثر بإنتاج المدارس الإسلامية الأخرى . فقد تأثرت على وجه الخصوص بمدارس مصر المملوكية ، ورحل أهل السودان إلى مصر وتعلموا فيها ، ورحل بعضهم إلى الشام والحجاز ، ووصلت تآليف المصريين إلى السودان . وقد ابتاع منساموسى كتبا كثيرة من مصر ، وحملها معه إلى بلاده ، كما شاعت بالسودان مؤلفات السيوطى وغيره من علماء مصر . ولكن ذلك كله لا ينتقص من الحقيقة المؤكدة ، وهى سيادة الطابع المغربى ، فالوافدون إلى الأزهر كانوا يتعلمون فقه المالكية، وأنشأوا بمصر مدارس مالكية، وتأثرهم بمصر لايختلف عن تأثر المغاربة أنفسهم .

أما عن المراكز التى استقرت بها هذه الثقافة، فإن أهمها مدينة تمبكتو التى قاربت

مكانتها ما كان للقيروان وفاس وقرطبة والقاهرة من مكانة فى العالم الإسلامى. وقد ارتبط تاريخ الثقافة فى هذا العالم الإفريقى بتاريخ هذه المدينة ، بدأت يوم ولدت المدينة، واشتد ساعدها باتساع أفق المدينة وتطورها ، ثم خضعت لما تعرضت له هذه العاصمة الروحية من مظالم الاحتلال المراكشى، ولما أعقبه من اضطرابات وتطورات، إلى أن دخلت فى النفوذ الفرنسى آخر الأمر . لقد كانت القلب النابض للحركة الفكرية ، اجتمع فيها العلماء من كل عنصر ولون: المغاربة والأندلسيون والمصريون والحجازيون، كما كانوا يفدون إليها من كل بقاع السودان الغربى . والأمر الذى كان يزيد الحركة الفكرية توقداً فى تمبكتو أنها لم تكن محلية الطابع، وإنما كانت عالمية اتصلت بالبيئات العالمية المعاصرة .

وكانت جنى تلى تمبكتو فى الأهمية ، ويبدو أن الثقافة الإسلامية كانت قد تسربت إليها قبل أن يدخل أميرها الإسلام، إذ يستفاد من رواية تاريخ السودان أن أميرها عندما تهيأ للدخول فى الإسلام أمر بحشد جميع العلماء الذين كانوا فى أرض المدينة، فجمع منهم نيفا وأربعة آلاف ، وأسلم على يدهم (ص ١١ ، ١٢) . وقد نشطت الحركة التجارية فيها، ورسخت قدمها فى الثقافة الإسلامية. وكان أسكيا الحاج محمد أول من عين بها القضاة للفصل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية، ثم تتابعت وثبتها بعد ذلك .

عبد الرحمن السعدى وكتابه : تاريخ السودان

اسمه كاملا كما ورد على صدر كتابه هو الشيخ عبدالرحمان بن عبدالله بن عمران بن عامر السعدى (وقيل السميدى) (١٠٠٤ ــ هـ؛ ١٥٩٦ ــ م). ومن هذا الاسم يتضح أنه ليس فى أجداده إلا أسماء عربية ، ومع ذلك لا يحق لنا أن نستخلص بطريقة قاطعة أنه كان من سلالة عربية خالصة . ففى ذلك العصر جرت عادة المسلمين

الذين ترجع أصولهم إلى البربر ، أو إلى غيرهم ، على أن ينسبوا أنفسهم إلى أصل عربي أو شريف ، ولذلك كانوا يقفون في سرد الأسلاف عند حد معين بحيث لا يحتوي اسم الواحد منهم على أي اسم غير عربي. ولو كانت كلمة السعدي صحيحة لرجح ذلك انتسابه إلى قبيلة بني سعد الذين تنتمي إليهم حليمة مرضعة الرسول ، كما ينتمي إليهم الأمراء السعديون الذين حكموا مراكش .

وقد أخذنا في تاريخ ميلاده روايته في تاريخ السودان :

« وفي ليلة الأربعاء ليلة الفطر عند استهلال الشهر والناس مازال في الزغاريت والتهاليل عليه والتباشر به ولد جامع هذه الكراريس عبد الرحمن بن عبد الله ابن عامر السعيدي ألهمه الله رشده واثبته في ديوان السعادة عنده وذلك في العام الرابع بعد ألف (مايو ١٥٩٦) . . . تاريخ السودان ، ص ٢١٣ .

وعلى أية حال فإن السعدي ينتمي إلى أسرة من الفقهاء في تمبكتو ، مسقط رأسه. وقد دهم الاحتلال المراكشي بلاده قبل مولده بخمس سنوات وبضعة شهور ، فنشأ وشب وأمضى حياته كلها تحت نير هذا الاحتلال. وعانى هو وأسرته ، كما عانى شعبه ، من مظالم المراكشيين ، وما ترتب على حكمهم من فوضى واضطراب ، وتدهور للحياة الثقافية والاقتصادية . لذلك ظلت الروح الوطنية طيلة حياته تؤجج وجدانه وتلهب مشاعره . وكان يدفعه هذا في بعض الأحيان إلى الإفراط في التحامل على مساوىء المراكشيين ، والتحيز في أحكامه ضدهم ، ولو أنهما تحامل وتحيز كان لهما ما يبررهما تماما ، ويقلان كثيرا عما يمكن أن يتوقعه المرء من مؤرخ في ظل ظروفه يؤرخ لوطن عزيز عليه .

وقد تلقى العلم في شبابه على يد الفقيه أحمد بابا ، وأخذ عنه في كثير من المواضع من تاريخ السودان . كما تلقى العلم على كثيرين غيره من علماء المنطقة الأفذاذ، نذكر منهم القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ :

« ومنهم القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ والد العالمين الفاضلين الصالحين الفقيه محمد بغيغ والفقيه أحمد بغيغ وهو جنوي بلدا (من جنى) ونسكري أصلا (من قبائل الواكوري أو الونجارا) كان فقيها عالما جليلا تولى القضاء بعد وفاة القاضي العباس كب ... » (تاريخ السودان ، ص ١٩)

«بعده أخذ عنه جماعة كالفقيهين الصالحين شيخنا محمد وأخيه أحمد ابني الفقيه محمود بغيغ قرأ عليه الأصول والبيان والمنطق والفقيهين الأخوين عبدالله وعبدالرحمن ابني الفقيه محمود وغيره وغيرهم وحضرت أنا عليه أشياء عدة وأجازني جميع ما يجوز له وعنه وسمعت بقراءة الصحيحين والموطأ والشفا . . . » (تاريخ السودان ، ص ٤٣) .

وقد سعى السعدي هو وإخوته إلى الانتقال من تمبكتو إلى جنى للعمل بها ، وهي البلدة التجارية القديمة التي كانت تنافس تمبكتو في الحياة التجارية والثقافية . وعمل السعدي محررا للعقود في جنى ، واستطاع في عام ١٠٣٩ هـ (١٦٢٧ م) الحصول على منصب إمام جامع سنكوري الشهير بجنى (١٠) ، الذي كان

---

(١٠) مصدري في هذا الصدد دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة العربية القديمة ، مادة السعدي ؛ وكذلك مقدمة المستشرق هودا للنص الفرنسي من تاريخ السودان ، ص٨ . إذ يفيد المصدران أن مسجد سنكوري يوجد بمدينة جنى ، وأن السعدي قد ولي إمامة هذا المسجد بعد رحيله من تمبكتو إلى جنى ببعض الوقت . بيد أن السعدي في تاريخ السودان ، وهو مصدرنا الذي نعول عليه في هذا الصدد ، أشار في كثير من المواضع إلى أن المسجد موجود في تمبكتو .

« ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلا قليلا حتى استكملوا فيه وزيادة .... فأول الحال كانت مساكن الناس فيه زوريبات الاشواك وبيوت الأخشاش ثم تحولوا من الزريبات إلى الصناص .. ثم بنوا الجامع حسب الإمكان ثم مسجد سنكري كذلك» (تاريخ السودان ، ص ، ٢١ ،

« منهم الفقيه الحاج جد القاضي عبد الرحمان بن ابي بكر بن الحاج تولى القضاء بتنبكت في أواخر دولة أهل ملي وهو أول من أمر الناس بقراءة حزب من القرآن للتعاليم في جامع سنكري ... » (تاريخ السودان ، ص ٢٧) .

(انظر أيضا ، تاريخ السودان ، ص ٢٩، ٣٠ ، ٣١ وغيرها من المواضع) .

بمثابة جامعة إسلاميـة . وفى أواخر عام ١٠٣٩ هـ (١٦٧٠ م) وسع معارفه عن العالم برحـلة قام بهـا إلى مملـكة ماسينا (أو ماسنة كما كتبهـا السعدى) الفولانية شمالى جنى على الضفة اليسرى لنهر النيجر . وكان قد دعاه إلى زيارة المملـكة قاضيها ، بيد أنه استقبل بحفاوة من السلطان نفسه ومن أعيان المملـكة ، مما شجعه على معاودة زيارة المملـكة بعد ثلاث سنوات ، وأدى فى هذه المناسبة خدمة للسلطان بعقد الصلح بينه وبين تابع له كان بينهما ثأر قديم (١١) . وقد قام السـعدى بهذا النوع من الوساطة مرات كثيرة بين أمراء المنطقة مما أكسبه خبرات واسعة وعلاقات وطيدة مع عدد كبير من حكام المنطقة . بل إنه كان ضالعا فى الشئون السياسية لبلاده ، فتزايدت قدرته على تقويم الأحداث السياسية وتدوينها . وساعده نسبه ونشأته ، والبيئة التى تتلمذ فيها ، والعلماء والفقهاء الذين درس على أيديهم ، على تسجيل حياة الطبقة المثقفة المستنيرة ودورها فى التاريخ السودانى .

وقد قاسى السعدى وأسرته الأمرين من طغيان الولاة الراكشيين فى جنى . ونفى أحد إخوته فى عام ١٠٤٤ هـ (١٦٣٤م) من موطنه الجديد إلى تمبكتو ، فاضطر السعدى إلى العودة إلى تمبكتو ، ليتدخل فى الأمر باسم أخيه ، بل إن السعدى نفسه عزل من منصبه بعد ذلك بسنتين ، فشـكا أمره إلى باشا تمبـكتو . وكان هذا الباشا مدركا لمكانة السعدى ، وبلغ من حرصـه على مرضاته أن طرد القائد الذى تسبب فى فصله ؛ بيد أنه كف عن المطالبة بالمنصب ، وفضل أن يعيش عيشة سواد الناس .

وكان السعدى بين الحين والحين يضع معارفه تحت تصرف صغار الحـكام فى مملـكة السنغى الجنوبية كاتبا ومؤدبا . وقد حدث فى عام ١٠٥٦ هـ (١٦٤٦م) أن

---

(١١) انظر الباب الثانى والثلاثين من تاريخ السودان (ص ٢٣٠ ومابعـدها) ، (عنوان ، هذا الفصل فى النص الفرنسى : « رحلة المؤلف إلى ماسنة لعقد معاهدة صلح ») .

استدعاه باشا تمبكتو (محمد بن محمد بن عثمان الشرجى)، وعينه سكرتيراً له (كاتباً):

«وفى ليلة السبت الثامن من المحرم الحرام الفاتح للعام السادس والخمسين والألف توفى أخونا الإمام ...، وفى يوم الإثنين السادس من الربيع النبوى توفى أخونا ومحبنا، وفى يومئذ بعث الباشا محمد بن محمد بن عثمان مرسول إلى جنى ... فوصل المرسول إليهم يوم السبت سابع الولادة فكتبوا إلى فى ذلك يوم الأحـــد ووصلنى المرسول والكتاب وقت العصر فخرجت من بيتنا فى غده يوم الإثنين وبتنا فى الطريق ليلتين لأجل يبس الماء فوصلت جنى ضحوة الاربعاء ... واستهل علينا شهر الربيع الثانى فى بلد وك ليلة الخميس ووصلنا مرسى كرتز فى نهار الأحد فصرف لى الحصان وطلعت مدينة تنبكت ليلة الاثنين الخامسة منه والتقيت معه تلك الليلة فرحب بى واكرمنى ورتبنى كاتباً نسال الله تعالى العفو والعافية والسلامة والمعونة فى الدين والدنيا والآخره ... (تاريخ السودان، ص ٢٧٦، ٢٧٧).

ويبدو أنه ظل يشغل هذا المنصب فى عهد خلفاء محمد بن عثمان أيضا إلى أن وافته المنية . وقد كان يكره على مرافقة الباشا فى رحلاته الكثيرة، فوسع معارفه عن شمال السنغى وجنوبيها، وهى مناطق لم يكن يعرف عنها شيئاً من قبل. ومن هذا نرى أنه كان يسهم بطريقة مباشرة فى شئون بلاده منذ عام ١٠٩٣هـ (١٦٣٠)، ويقوم بالأعمال العامة والسفارة والوساطة. وربما طرأت له فى إحدى هذه المناسبات فكرة كتابة تاريخ لبلاده يتيح له ربط الأحداث الماضية والأحداث التى تجرى أمام عينيه . ولقد شرع بالفعل فى كتابة تاريخ السودان. وظل السعدى يواصل هذا العمل الهام إلى أن توقف به عند أحداث الخامس من ذى الحجة ١٠٦٣ (٨ نوفمبر ١٦٥٢) .

« وهنا انتهت المجموعة بحمد الله وحسن عونه بتاريخ نهار الثلاثاء لخمس خلون من ذى الحجة الحرام الثالث والستين والألف والحمد لله رب العلمين وهو حسبى

ونعم الوكيل.» (تاريخ السودان ، ص ٣١٤) .

وبهذه الفقرة ينتهي الباب السابع والثلاثون من وتاريخ السودان، حسب التقسيم الذي أدخله المستشرق هودا على الكتاب . ولكن السعدى عاد بعد ثلاث سنوات فأضاف إليه باباً جديداً ، هو الباب الثامن والثلاثون ، تنتهي أحداثه عند تاريخ ١٦ جمادى الأولى ١٠٦٥ (١٢ مارس ١٦٥٥) :

« وفى يوم الأحد السادس عشر من الربيع الثانى ورد كتاب من مراكش من القائد يحيى بن يحيى الحيانى للباشا محمد بن أحمد بن سعدون وأخبر فيه أن السلطان مولاى محمد الشيخ توفى فى الثانى والعشرين من الربيع النبوى عام خمسة وستين وألف وبايعوا ابنه السلطان مولاى العباسى ساعتئذ فجاء وفق المراد وظهرت منه البركة فى الساعة والحين وفى السادس عشر من جمادى الأولى ورد كتاب من عند القائد على ابن عبد العزيز الفرجى فى جنى .. ، تم وكمل بحمد الله تعالى وحسن عونه » (تاريخ السودان ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ وهى الصفحة الأخيرة من الكتاب) .

وفى ذلك التاريخ يكون السعدى قد قارب الواحدة والستين بالتقويم الهجرى (٥٩ سنة ميلادية) . والأرجح أنه لم يعش طويلا بعد ذلك ، وإلا لما توانى عن أن يضيف بابا جديداً إلى تاريخ السودان . وهكذا فعلى الرغم من أن السعدى قد بدأ فى إعداد تاريخ السودان بعد أن بدأ محمود كعت فى إعداد تاريخ الفتاش بوقت طويل ، ومن أن محمود كعت قد توفى قبل مولد السعدى بحوالى عامين ، إلا أن أحداث تاريخ السودان تنتهى قبل أحداث تاريخ الفتاش بحوالى عشر سنوات . ذلك أن محمود كعت ، ولو أنه عمر طويلا ، إذ تجاوز الخامسة والعشرين بعد المائة (بالتقويم الهجرى) ، إلا أنه لم يكمل كتابه ، بل أكمله أحد حفدته من بعده . إذ يشير تاريخ الفتاش بالفعل إلى أحداث تذهب إلى ١٠٧٦ هـ (١٦٦٥م).

تاريخ السودان

كان ا . روسو هو أول من أشار إلى وجود هذا الكتاب ، بيد أن الرحالة الألماني بارث كان أول من عرفه في شيء من التفصيل ، فقد استقى منه جانباً كبيراً من المعلومات التي استخدمها في سرد رحلته إلى إفريقية . ولكن أهالي تمبكتو خدعوه فيما يبدو فنسب الكتاب خطأ إلى أحمد بابا . ومرجع الخطأ أن تراث السودان الثقافي بأسره متجسد في تلك الشخصية الشهيرة ، ولذا لم يكن من غير المألوف أن ينسب إليه كل عمل قيم . ومما يسر الخطأ أيضا أن معاجم السيرة تختلط في أعين العرب مع المعالجات التاريخية الحقيقية . ولما كان معجم أحمد بابا ذيل الديباج معروفا للجميع ، فقد أعتبر تاريخا السودان .

وإذا كنا قد استطعنا من غير صعوبة تفسير الخطأ الذي وقع فيه بارث ، فإن رالفس الذي ترجم عدداً من مقاطع تاريخ السودان ،والذي اضطلع حقاً على العمل بأكمله ، لم يجد إشارة محددة تبين المؤلف الحقيقي للكتاب . وقد أبدى شكه في حقيقة المؤلف عندما رأى بعض الاقوال لأحمد بابا . وليس من النادر أن يذكر مؤلف ما أعماله الخاصة ، ولكن من غير المألوف أن يتكلم عنها بصيغة الشخص الثالث . وعلاوة على ذلك فإن أسم أحمد بابا كانت تعقبه دائماً عبارة « رحمة الله تعالى » ، وهي عبارة وإن كانت لا تستخدم إلا بالنسبة لشخص راحل ، إلا أنها يمكن أن تعزى إلى ناسخ قام بالعمل بعد وفاة المؤلف . وأخيراً فإنه فيما يتعلق بوفاة أحمد بابا فإننا نجد في الكتاب العبارة التالية :

« وفي يوم الثلاثاء العاشر من ذي القعدة الحرام في العام السادس عشر بعد ألف وردالشيخ العالم العلامة فريد دهره وحيدعصره الفقيه أحمد بابا بن الفقيه أحمد ابن الحاج أحمد بن عمر مدينة تنبكت سرحه إليها الأميرمولاي زيدان بوعد منه في

حياة أبيه متى من الله عليه بدار ابيه يطلقه أن يسير إلى دار أبيه وبعد ما وفى له ذلك الوعد وانفصل عن المدينة ذاهباً ندم على ما صدر منه لولا أن الله تعالى قدر تربته فى مسقط رأسه » (تاريخ السودان ، ص ٢١٨ — ٢١٩) .

وإلى جانب هذه البراهين ذات الطابع السلبي نجد براهين أكثر إيجابية على شخصية المؤلف الحقيقية ، ففى ص ٣٢٥ يتحدث المؤلف عن مولده ، بل يذكر وفاة عدد من أقاربه ، إلخ (أوردنا فيما سبق جزءاً من هذه الصفحة للاستدلال على على تاريخ ميلاد المؤلف) .

وقد أعتمد المستشرق هودا فى تحقيق تاريخ السودان على مخطوطات ثلاثة A,B&C . وللمخطوطين A&C دلالتهما فيما يتعلق باسم المؤلف . فعلى واجهة الورقة الأولى من المخطوط A لا يوجد عنوان الكتاب واسم المؤلف فقط ، وإنما توجد أيضاً سيرة موجزة للمؤلف . أما المخطوط C فيبدأ بهذه الكلمات : « جامع هذه الكراريس عبد الرحمان بن عبـد الله » . ولذا لا يوجد محل للتردد بشأن هذه النقطة . وكل ما يمكن قوله أن السعدى أعاد فى بداية مؤلفه نسخ معجم أحمد بابا ، ثم أضاف إليه عمله كملحق له . ولكن حتى فى هذه الحدود يكون تأكيد ذلك أمراً غير مقبول . فالسعدى قد ذكر احمد بابا فى عدة مواضع من كتابه دون أدنى مواربة . ومن ثم يكون لنا أن نتساءل عن السبب فى أنه فعل ذلك لو أنه قد استعاد كلامه . وعلاوة على ذلك فإننا لا نلاحظ أى فرق فى الأسلوب بين الجزءين الأول والثانى ، فى حين أن الجزء الثانى لا يمكن أن يكون من عمل أحمد بابا لأن أحداثه في معظمها لاحقة لموته . وإلى جانب ذلك فإننا فى كل مواضع الكتاب نجد الأخطاء النحوية نفسها ، والتعبيرات نفسها التى تنتمى إلى لغة الحديث والتى يخلو منها معجم أحمد بابا . وأخيراً لا يوجد دليـل واحد على أن أحمد بابا هو الذى كتب تاريخ السودان .

ومن المفهوم بطبيعة الحال ألا يدفعنا ذلك إلى الافتراض بأن السعدى لم يأخذ من أعمال أخرى المواد التى أوردها فى الجزء الأول من كتابة . ولكن ما نجهله هو إلى مدى فعل ذلك ، وهل فعله بتوسع أم فى إيجاز . ومن المستحيل أن يكون الأمر على غير هذا النحو : فالتاريخ لايخترع ؛ وهو بالضرورة يتعلق فى الجانب الأكبر منه بأحداث سابقة يستعيرها المؤلف من أعمال أخرى ، أو من روايات متناقلة . ومن حق المؤلف أن يبرزها ، وأن يعرضها فى صورة جديدة . ولكن من غير المسموح له أن يغير شيئاً من جوهرها ، وإلا كان عليه أن يقدم براهين مؤكدة على أقواله .

وقد كان المخطوط A جزءاً من مجموعة مخطوطات أرسلها السكولونيل أرشينار إلى «المكتبة القومية» بباريس . وهو مخطوط غير مؤرخ ، ويبدو أنه يرجع إلى أواخر القرن الثامن عشر. وكانت الرطوبة قد غيرت الجزء العلوى من بعض صفحاته ، بيد أن المقاطع غير المقروءة كانت مع ذلك قليلة للغاية. أما المخطوط B فقد نسخ من المخطوط A ، بناء على طلب فليكس دى بوا (صاحب الكتاب الممتع تمبكتوا الغامضة Tombouctou la Mysterieuse) إبان رحلته إلى تمبكتو فى عام ١٨٩٦ ، وبذا يكون المخطوطان A&B من عائلة أو فصيلة واحدة. وقد أهدى دى بوا هذا المخطوط بدوره إلى « المكتبة القومية » . وعندما كان المستشرق هودا على وشك الانتهاء من تحقيق الكتاب وترجمته والتقديم له بعث إليه السيدرينيه باسيه مدير مدرسة الآداب بالجزائر مخطوطا ثالثاً (C) لكتاب تاريخ السودان كان قد أرسله إليه الدكتور توتان . وهذا المخطوط أفضل بصفة عامة من المخطوطين A&B ، وقد نسخ عن أصل مختلف . فكتابته أكثر وضوحاً ، والتشكيلات التى تصحب أسماء الأعلام وضعت بصفة عامة بقدر كاف من العناية ، وإن كانت به بعض مقاطع منسوخة بطريقة سيئة ، وبضع كلمات وبضعة سطور

محذوفة كلية . ولكن يبدو أن ذلك يرجع إلى خطأ النسخة التى تم النقل عنها أكثر مما يرجع إلى جهل الناسخ وإهماله . وقد محى جزء كبير من اسم الناسخ ، وبقى منه « الأمين بن محمد (؟) البوركو (؟) بن محمد » ، واسمه مسبوق بكلمة الإمام . ويبدو أنه كان ناسخا محترفا . وكان المخطوط C مخصصاً (مهدى) للألفا الحاج بن (؟) ، وقد تم الانتهاء منه فى ٢٥ جمادى الأولى ١٢٠٦ ، الموافق ٢٠ يناير ١٧٩٢ .

وقد واجه المستشرق هودا صعوبة كبيرة فى ترجمة النص العربى إلى الفرنسية مرجعها الخلط فى أسماء الإعلام. ففى بعض المواضع كان السعدى يستخدم اسم أحد البلدان لرئيس أو زعيم هذا البلد أو العكس . ومن جانب آخر لم يكن من الواضح دائماً ما إذا كان يتحدث عن لقب الشخص أو اسمه . وإذا كان ممكنا بالنسبة لأسماء الإعلام العرب كتابتها بطريقة صحيحة ، فإنه لا يتوافر الشىء نفسه بالنسبة للأسماء السودانية ، فالتشكيلات لا توضع دائماً على الحروف الساكنة التى يجب وضعها عليها، ومن ثم كان من المتعذر الحسم بين مختلف القراءات للمخطوطات المختلفة . ومن ناحية أخرى فإن أسماء كثيرة قد اختفت أو حورت . فمثلا كالا تسمى اليوم سكتو (ص ١٩ حاشية من الترجمة الفرنسية ، ص١٠ من النص العربى)، وباغن أو باغنة قد أستبدل بها باكونيه (ص ١٨ ، ص ١٨ حاشية من الترجمة الفرنسية ، ص ٩ من النص العربى) ، إلخ . ومن ثم يتعين الاطلاع على وثائق جديدة للوصول إلى حسم أكبر فيما يتعلق بكتابة هذه الأسماء . وتلك مهمة لا يمكن أن تقوم بها إلا أقلية يعتمد عليها عاشت طويلا فى السودان .

إن الكتابة العربية غنية بالحروف الساكنة ، ولكنها فقيرة فى حروف العلة ، كما أن التشكيلات الثلاثة التى تملكها تستخدم فى إخراج سلسلة من الأصوات الطفيفة الاختلاف دون أن يبدو من الناحية المظهرية أن هناك تمايزا . وحتى عندما

يتعلق الأمريكانات أجنبية عن اللغات السودانية ، فإننا نجد لتشكيلات مختلفة للتعبير عن النطق الواحد . ومن ثم لا يجب أن يدهش المرء من وجود كتابة لا تتفق دائماً مع النطق الجارى أو الشائع . وبالنسبة للكلمات التى استقرت طريقة كتابتها بالفرنسية عن طريق الاستخدام رأى المستشرق هودا أنه من غير المفيد تعديلها بحجة الوصول إلى قدر أكبر من الدقة . وأخيراً يوجد فى كل اللغات اختلاف بين طريقة كتابة بعض الأسماء وطريقة نطقها ، وذلك أشد انطباقا على اللغة العربية عند كتابة الأسماء السودانية والبربرية .

وتاريخ السودان على الرغم من عنوانه العام ، لا يتناول إلا جزءا من السودان . وهو من الناحية العملية لا يتحدث بطريقة مطولة إلا عن امبراطورية السنغى، والاحتلال المراكشى للمنطقة الواقعة على جانبي النيجر . ولا يزودنا عن إمبراطورية مالى إلا بفقرات قليلة . وينصب الاهتمام الأكبر للسعدى على مدينة تمبكتو مسقط رأسه ، وعلى الدور العظيم الذى قامت به فى عالم السودان. وقد شرع المؤلف فى إعداد كتابه حين بدأت هذه المدينة فى التدهور . فقد عجز المراكشيون عن إدارتها ، وعن أن يجعلوا منها مركز رخاء وثروة لبلادهم الأصلية .وترتب على معاملتهم الفظة للسودان أن انتشر الخراب بين هؤلاء القوم الذين يتميزون بوداعة الأخلاق والعزوف عن الشر ، كما أن تماديهم فى هذا المضمار أوجد نوعا من المقاومة الشعبية التى تمكنت فى أول الأمر من أن ترفع نيرهم عن معظم أرجاء البلاد ومن أن تحصره فى تمبكتو ، ثم من إزالته نهائيا بعد ذلك.

وتاريخ السودان ، كما وصل إلينا ، يمكن تقسيمه إلى جزئين رئيسيين يتميز كل منهما بخصائص مختلفة عن الآخر :

الجزء الأول ، ويتجاوز أكثر من نصف الكتاب، ويشمل المعلومات التي جمعها المؤلف من مصادر شفهية أو مكتوبة. وهي معلومات جافة ورتيبة إلى حد كبير أهمل السعدي الإشارة إلى مصادرها . وفي كثير من الأحيان يمكن استنتاج أنها نابعة من الروايات المتداولة على لسان الناس . وهي يحتوي بالطبع على كل الثغرات ومظاهر عدم اليقين التي يتميز بها مثل هذا المصدر من مصادر المعلومات . ونحن لا يمكننا القطع بحجم الوثائق المكتوبة التي كانت موجودة قبل القرن السادس عشر ، أو بأهميتها وإمكان الاعتماد عليها . وكثيراً ما يقول السعدي إن المعلومات التي يوردها قد حصل عليها من أصدقائه من العلماء ، وهو لا يشير بالنسبة لتاريخ السودان إلا إلى كتابين فقط ، هما ذيل الديباج لأحمد بابا ، وقد أخذ عنه كثيراً ، وكتاب آخر اسمه الحبر . أما فيما يتصل بتاريخ المغرب فلا يذكر إلا كتاب الحلل الوشية في تاريخ أخبار المراكشية . والأرجح أن السعدي قد استعان بكتب أخرى ، وبخاصة بالنسبة لتاريخ المغرب . ولكن صمته عن ذكر أسماء هذه المراجع لا يعني عدم وجودها .

أما الجزء الثاني فعلى نقيض ذلك ، إذ يتكون من انطباعات السعدي ومذكراته الشخصية . ومصدر المعلومات في هذا الجزء شهود عيان ، بل السعدي نفسه وتجربته الشخصية في بعض الأحيان . فقد كان على صلة مباشرة بالأحداث السياسية في بلاده . ويتميز هذا الجزء بالحيوية ، وبوفرة المعلومات . وفيه يتحدث السعدي عن أشياء رآها بنفسه أو رواها له شهود عيان يثق في روايتهم . فلقد مكنته المناصب العامة العالية ، التي كان يشغلها بحكم كفايته وتطلعه ، من أن يقيم علاقات وطيدة مع كثيرين من شاغلي المناصب الهامة . وأعطاه ذلك الفرصة في كثير من لأن يتغلغل في دقائق الأمور ، ولأن يقدم لنا تفصيلات بالغة الدقة . وعلى الرغم من أن اهتمامه الزائد بوصف الظروف المحيطة به كان ينطوي في بعض المواضع على شيء من المبالغة ، إلا أن هذا الاهتمام يوفر لنا صورة واضحة عن البيئة التي عاش فيها وساعدته على أن

يتطور . وفى هذا الجزء من تاريخ السودان نقف بوضوح شديد على الأفكار التى كانت تدور فى رأس السعدى ، وعلى اتجاهاته ومواقفه .

وقد كان غالبية المؤرخين العرب يفتقرون إلى وجود خطة فى كتاباتهم ، ويتبعون طريقة الحوليات ، أى يكتبون تاريخهم سنة بسنة . وقد اتبع الطبرى شيخ المؤرخين العرب هذه الطريقة ، وإن كان اليعقوبى الذى عاصره قد ابتعد عنها . وانتقد ابن خلدون طريقة الحوليين ، ولكنه عندما شرع فى كتابة التاريخ وقع فيما نقد فيه غيره . ثم جاء السعدى فكتب تاريخه على نسق الغالبية العظمى من هؤلاء المؤرخين ، فخلت كتابته من أية خطة .

وكان السعدى إلى حد ما يجهل فن الكتابة الأدبية ، ولغة الكتابة عنده بها شىء من الركاكة . وكثيرا ما كان يستخدم كلمات غير موجودة فى المعاجم العربية ، ويغير فى تركيب الجمل العربية وفق هواه . وفى بعض الأحيان يشعر القارىء أنه يفكر بطريقة سودانية ، ويكتب بلغة ليست لغته الأصلية ، ومع ذلك خلت معظم كتابته من الغموض . هذا ويمكن إرجاع بعض ثغرات الكتاب وعيوبه إلى العادة التى جرى عليها النساخون فى البلاد الاسلامية من حرصهم على جمال الخط ورونقه أكثر من حرصهم على دقة النقل وحرفية الموضوع . وليس من العدالة فى شىء أن نطلب من رجل إفريقى عاش فى هذه الفترة أن ينقد الأحداث التى يقصها وأن يحللها ، أو أن نطلب منه أن يحكى لنا أسباب هـــذه الحوادث ونتائجها .

وعلى الرغم من عدم وجـــود منهج بالكتاب ، وبما به من ثغرات ، إلا أنه يتيح لنا أن نلم بوجه عام بفكرة عن التنظيم العسكرى والإدارى لجزء هام من السودان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ومن أن نقف على الأسباب التى أوجدت بهذا الجزء من السودان فترات رخاء وفترات شقاء . والكتاب فى المقام

الأول يلقى ضوءاً على المساوىء التي تنتج عن نظام إقطاعى يقوم على أقنان شاغلهم تحطيم وحدة الحكومة ، ويساعدون بهذه الطريقة على تيسير مهمة الاعتداءات الخارجية . ثم يعدد لنا بعد ذلك الأخطاء التي ارتكبها المراكشيون ، والتي أساءت علاقاتهم بالشعب المحكوم ، وتسببت فيما قام به هذا الشعب من جهود لرفع نيرهم عن بلاده . ونجد فى بعض مواطن الكتاب بيانات مختصرة عن تاريخ الشعب المراكشى . وتفيد هذه البيانات فى تقويم ما كتبه المراكشيون أنفسهم فى تاريخ بلادهم ، فلم تكن كتابات هؤلاء تتميز بالحياد ، بل كثيراً ما كانت تكتب لإرضاء الحكام ومحاباتهم على حساب الحقيقة ، دون أى اهتمام بصحة المعلومات .

ويوضح الكتاب كيف أن المراكشيين قد اتبعوا منذ البداية نظام الحماية . بيد أن الشعب احتفظ بقوانينه وتقاليده وموظفيه ، كما لم يتغير الموظفون من ألقابهم . واحتفظ السودان بالأساكى كرأس للادارة المحلية ، وهم لم يكونوا بالطبع حكاما بمعنى الكلمة ، وإنما كان لهم اللقب ، وكان ذلك كافيا فى نظر الشعب للاعتقاد بأنه لم يتغير شىء عن العهد القديم . أما بالنسبة للاجانب ، سواء أكانوا من عنصر أبيض ، أم من عنصر أقل بياضا ، فكانوا يوضعون تحت تصرف الحكام المراكشيين . وقد كان الباشا يعين من قبل سلطان مراكش ، وكانت له السلطة العليا من الناحية الإدارية . وكان يوجد إلى جانبه موظف كبير مختص بالشئون المالية يعين بدوره عن طريق الحكومة المراكشية . وهذا الموظف كان يسمى « الأمين » ، وهو لم يكن مسئولا أمام الباشا ، وإنما أمام السلطان . وكان « الأمين » يتحكم فى الضرائب ، وفى المصروفات العامة لجيش الاحتلال . وكان ضباط الجيش بصرف النظر عن رتبهم يعينون مباشرة من مراكش . وهذا النظام كان يمكن أن يدوم لو كانت طرق المواصلات أيسر وأسرع . وإنما كان

لا بد من الانتظار أكثر من ستة أشهر للحصول على حل أو قرار أو إجابة من البلاط المراكشى ، وكثيرا ما كانت الأحداث تحتاج إلى حل سريع . وبالتدريج أخذ الباشوات يتصرفون على مسئوليتهم ، إلا فى الأمور التى يطلبون فيها التصديق على تصرفات يوقنون مسبقا بنتائجها . وحتى هـــذه الشــكايات سرعان ما تخلصوا منها .

وكان بعض الموظفين يحاولون عن طريق مؤامراتهم فى البلاط إبطال القرارات التى يتخذها الباشوات ، وأدت هذه الصدامات إلى زيادة تدهور الوضع فيما بين كبار الموظفين . وقد وجد بين هؤلاء عدد من المرتدين والخوارج الذين يدينون بثرواتهم لوسائل مشبوهة . وانتهى هـذا الوضع بتقاسم السلطة بين الباشوات ، أحدهما يتولى قيادة القوات ، والآخر يحكم البلاد . وعندما دخل « الأمين » بدوره فى الصراع بين الباشوات وصلت الفوضى إلى أقصاها . كما أن جيش الاحتلال ، الذى لم تسكن رواتب جنوده تدفع بانتظام بسبب هذه الفوضى ، قد استغل هذه الفوضى ليفرض لنفسه حق اختيار رؤسائه ، ومن ثم أصبحت سلطة السيادة المراكشية سلطة اسمية بحتة . ويضيف السعدى إلى ذلك أن المتاعب التى كان الوطن الأم مسرحا لها قد شجعت بدرجة كبيرة تحركات كل الساخطين .

وبالتدريج أصبح الباشا ينتخب من قبل الجنود ، ولـكنـه قبل ذلك كان قد اتخذ بالفعل مظهر سيد مستقل حقيقى . فقد كان له بلاط ومجلس وزراء . ولـكى يدعم وضعه هذا ، ولـكى يشبع رغبات المحيطين به ، كان عليه أن يعتصر السكان ، وأن يضاعف من غارات اقتناص الرقيق . وقد عقــد سكان السودان ، الذين كانوا مكبلين بالضرائب ، وكان عليهم أن يتحملوا كل أنواع المظالم التى يوقعها بهم الجيش المراكشى ، عقــدوا العزم على زعزعة النير القاسى الذين كانوا خاضعين له ، وذلك على الرغم من رهبتهم من المراكشيين ومن حسهم المتثاقل . وتعددت الثورات فى

كل مكان . بيد أنه على الرغم من أن عبد الرحمن السعدى لم يعش طويلا ليشهد تحرر بلاده ، فقد كان باستطاعته أن يتنبأ بالخلاص القريب .

وعلى ضوء المشاعر الوطنية الدافقة التي كانت تحفز السعدى ، كان لا بد أن نتوقع منه التحيز فى أحكامه ، وعرض الأحداث بطريقة تفرط فى إدانة الأجانب الذين غزوا وطنه واستعبدوه . بيد أن السعدى حرص على ألا يكون كذلك . ولا شك أنه كان يكره الراكشيين ، ولكنه لم يدع تلك الكراهية تطغى عليه ، وآثر أن يسجل الحقائق كما رآها بنفسه ، أو كما سمعها من شهودها عيان جديرين بالثقة . والشكل البسيط والطبيعى للغاية الذى استخدمه فى عمله يستبعد فكرة أنه يفرض هذه الكراهية على القارىء ، بل إنه أورد فى كتابه كثيراً من الفقرات التى تمجد أعداءه .

ومع ذلك فإن الكتاب يزخر بأحداث بالغة الأهمية تروى لأول مرة تحدد المراحل الرئيسية للحياة القومية لجزء من أهالى السودان ، وتبين أن هؤلاء الذين ينكر عليهم الكثيرون أية بادرة فى مجال التقدم إنما كانت لهم حضارة خاصة بهم لم يفرضها عليهم شعب من عنصر آخر ، وأن زوال هذه الدولة التى كانت تتمتع برخاء نسبى إنما يرجع إلى حد كبير ، إن لم يكن فقط ، إلى الغزاة «الأجانب» والكتاب آخر الأمر جسر يربط بتاريخ البشرية مجموعة من الأمم كانت بعيدة عن مجرى هذا التاريخ .

هذا والكتاب حافل بسير العلماء ، ولكن النبذ التى وردت عنهم كانت لسوء الحظ جافة ورتيبة ، ولا تكاد تهدينا إلى مشاعر وأفكار الفئة المستنيرة من السكان فى ذلك العهد . وتتكون هذه النبذ من أسماء الشخصيات ، وأسماء أساتذتهم ، وقائمة الكتب التى درسوها ، وتاريخ وفاتهم ، والمكان الذى دفنوا فيه ، فى حين

يخلو الكتاب مما يشير إلى الحياة الخاصة بهذه الشخصيات ، أو إلى طباعهم واتجاهاتهم ، أو إلى الأحداث التى ارتبطوا بها .

والنص العربى كما ورد بالمخطوطات لم يكن به أى تقسيم من أى نوع ، ثم جاء المحقق المستشرق هودا فقسمه إلى ثمانية وثلاثين بابا ، بيد أنه ترك النص على حاله دون أى تغيير فى إطاره العام ، بل إنه ترك الأبواب فى النص العربى دون عناوين ، اكتفاء بكتابة أرقام الأبواب : الباب الأول ، الباب الثانى ، وهكذا إلى الباب الثامن والثلاثين. ولكنه وضع عناوين الأبواب فى النص الفرنسى . وكانت هذه العناوين فى الجزء الأكبر منها عبارة عن ترجمة لبدايات الأبواب كما وردت فى النص العربى. وقد أورد هذه العناوين فى فهرس النص العربى . كما صدر هودا النص الفرنسى بمقدمة عالية القيمة كانت عونا كبيرا لى فى تناول الكتاب والتعرف على حياة مؤلفه .

وإلى جانب ذلك أضاف المحقق فى ذيل صفحات النص الفرنسى كثيراً من الحواشى والتعليقات البالغة الأهمية ، تناول فيها شرح أصول بعض الأسماء ومعناها ، وطريقة كتابتها ، مشيرا إلى أشكالها القديمة كلما وجدت ، وفسر ما غمض من النص . بيد أن هذه الحواشى والتعليقات على أهميتها تقل كثيراً ، من حيث حجمها فى المقام الأول ، عن مثيلاتها فى ذيل صفحات النص الفرنسى من تاريخ الفتاش . وربما كان من مرجع ذلك أن تاريخ الفتاش قد صدر بعد تاريخ السودان بخمسة عشر عاما . ولعل هودا ، الذى اشترك مع المستشرق الفرنسى ديلافوس فى تحقيق وترجمة تاريخ الفتاش ، قد اكتسب فى هذه الفترة مزيدا من الخبرة والتجربة ، وأحس بأهمية ما أضافه إلى تاريخ السودان ، فكرس مع زميله جهدا أكبر لهذا الجانب من عملهما فى تاريخ الفتاش . والحقيقة أن ما ورد بذيل صفحات تاريخ الفتاش إنما هو ثروة علمية لا تقدر بثمن تجعل النص أيسر منالا للقارىء الملم بالفرنسية .

كذلك أضاف هودا فى نهاية النص الفرنسى فهرسا للاعلام مع أرقام الصفحات

التي وردت بها في الفرنسي . ولما كانت صفحات النص الفرنسي مزودة بأرقام الصفحات المقابلة لها في النص العربي ، فقد أصبح من الميسور تماما معرفة المواضع التي وردت بها هذه الأعلام في كل من النصين العربي والفرنسي على حد سواء .

ويقول هودا في مقدمته إنه كان في نيته أن يلحق بالنص الفرنسي أيضا جداول بأنساب الأساكي مزودة بتواريخ توليهم السلطة وانتهاء عهدهم بها سواء بالوفاة أو العزل أو غيرهما ، وكذلك قوائم للباشوات ، وبعض تفاصيل عن الموظفين السودانيين الذين ورد ذكرهم في تاريخ السودان . ولكن بدا له أنه من الأفضل الانتظار لحين انتهائه من تحقيق وترجمة تذكرة النسيان ، الذى يعد تكملة لـ تاريخ السودان ، وبخاصة أن تذكرة النسيان لم يتأخر صدوره كثيرا ، فقد صدر في عام ١٩٠١ ، أى بعد صدور تاريخ السودان بثلاث سنوات . وقد جاء تذكرة النسيان مزودا بالفعل بهذه القوائم . هذا ويبدأ تاريخ السودان بفقرات أوردها النص الفرنسي تحت عنوان « التسبيحة » .

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم الحمد لله المتفرد بالملك والبقاء والقدرة والثناء المحيط بعلمه ... » (ص ١ -)

وعلى الصفحة نفسها بداية فقرات أخرى وردت بالنص الفرنسي تحت عنوان « مقدمة » :

« فقد أدركنا أسلافنا المتقدمين أكثر مايتوانسون به في مجالسهم ذكر الصحابة والصالحين رضي الله عنهم ورحمهم ثم ذكر أشياخ بلادهم وملوكها وسيرها وقصصهم وأنبائهم وأيامهم ووفياتهم .. حتى انقرض ذلك الجليل ومضى رحمة الله تعالى عليهم أما الجيل الثاني ما كان فيهم من له الاعتناء بذلك ..

« ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه وذهاب ديناره وفلوسه وأنه كثير الفوائد كثير الفرائد لما فيه معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم فاستعنت بالله سبحانه فى كتب ماورويت من ذكر ملوك السودان أهل سغى (السنغى)(١٢) وقصصهم وإخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية سلطان مدينة حمراء مراكش فأقول وبالله تعالى أستعين وهو حسبي ونعم الوكيل » (ص ١ ، ٢) .

ثم يجىء الباب الأول ، وعنوانه «ذكر ملوك سغى» (وهذا العنوان هو بداية الباب الأول فى النص العربى) .

« أول من تملك فيها من الملوك زا الأيمن ثم زازاكى ثم زانكى ثم ... ثم زا كنكن هؤلاء أربعة عشر ملوكا ماتوا جميعاً فى جاهلية ... والذى أسلم منهم زا كسى يقال فى كلامهم مسلم دم معناه أسلم طوعا بلا إكراه رحمه الله تعالى وذلك فى سنة أربعمائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ثم زاكى دارى ثم ... ثم سن الأول على كلن ... ثم السلطان بعده وليه أخوه سلمن نار ... ثم سن على ثم سن بار اسمه بكرداع ثم بعده اسكيا الحاج محمد » (ص ٣ ، ٤) .

ويجىء الباب الثانى ، وعنوانه « ذكر أول سن وهو على كلن » :

« وأما سن الأول على كلن فكان من قصته أنه سكن فى الخدمة عند سلطان ملى (مالى) هو وأخوه سلمن نار ... فعلى كلن يغيب فى بعض الأحيان لطلب المنفعة على سبيل العادة ثم يرجع وهو لبيب عاقل فطن كيس جدا وبقى يزيد فى النبية حتى

---

(١٢) العبارات الموجودة بين قوسين، وسط الفقرات المأخوذه عن تاريخ السودان من عندى ـ كاتب المقال .

قارب سني وعرف طرقاتها فأضمر الخلاف والهروب إلى بلده ... ثم فطّن أخاه واطلعه على سره ... فخرجا وتوجها لسني ... حتى وصلا بلدهما فكان على كلن سلطانا على أهل سني وتسمى بسن وقطع حبل الملك عن أهله من سلطان ملي وبعد ما مات تولى أخوه سلمن نارولم يجاوز ملكهم سني واحوازها فقط إلا الظالم الأكبر الخارجي سن على فزاد على جميع من مضى قبلهم في القوة وكثرة الجند فعمل الغزوات وطوع البلاد وبلغ ذكره شرقا وغربا ... وهو آخر ملكهم إلا ابنه أبو بكر داع تولى بعد موته فمن قليل نزع الملك منه اسكيا الحاج محمد » (ص ٤ ، ٦) .

ويلي ذلك الباب الثالث ، وعنوانه « استيلاء كنكن موسى على مملكة سني » :

« تنبيه » سلطان كنكن هو أول من ملك سني من سلاطين ملي وهو صالح عادل لم يكن فيهم مثله في الصلاح والعدل قد حج بيت الله الحرام وكان مشيه والله أعلم في أوائل القرن الثامن عشر في قوة عظيمة ... (ص ٧) .

أما الباب الرابع فعنوانه « ذكر مملكة ملي » :

« أما ملي فإقليم كبير واسع جداً في المغرب الأقصى إلى جهة البحر المحيط وقيمغ (Qaiamagha) هو الذي بدأ السلطنة في تلك الجهة ودار إمارته غانة وهي مدينة عظيمة في أرض باغن قيل إن سلطنتهم كانت قبل البعثة (الهجرة) فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكا وعدد ملوكهم أربعة وأربعون ملكا وهم بيضان في الأصل ولكن ما نعلم من ينتمي إليه في الأصل وخدامهم عكريون (من الونجارا) فلما انقرضت دولتهم خلفها في السلطنة أهل ملي وهم سودان في الأصل فوسعت سلطنتهم كثيراً جداً فملكوا إلى حد أرض جنى » (ص ٩) .

ويليه الباب الخامس ، وعنوانه « ذكر جنى ونبذة من أخبارها » (وهو بداية هذا الباب في النص العربي) :

« ... وهى مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة جعل الله ذلك فى أرضها خلقا وجبلة وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمساواة ولكن المنافسة على الدنيا كانت من أخلاقهم جدا ... وهى سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقى أرباب الملح من معدن تغاز (تغازة) وأرباب الذهب من معدن بيط (Bitou) وهى اسم إقليم بوكوكو Boukoukou الشهير بذهبه ، وكلا المعدنين المباركين ما كانت مثلهما فى الدنيا كلها ... (ص ١١ ، ١٢) .

ويلجيء حديث السعدى عن جنى فى هذه الفقرة وغيرها عن حسد بالغ وذلك لأن شهرتها جاوزت شهرة تمبكتو التى كان السعدى ينزلها فى نفسه منزلة عالية ، ولأنها نافستها فى التجارة والثقافة .

وعنوان الباب السادس هو « ذكر العلماء والصالحين والقضاة الذين سكنوا مدينة جنى » :

« وقد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة سكانا من العلماء الصالحين من غير أهله من قبائل شتى وبلاد شتى منهم مورمغ كنكى (Mourimagha - kankoi) أصله تاى (Taio) ... فرحل إلى كابر لأخذ العلم ثم رحل إلى جنى فى أواسط القرن التاسع ... » (ص ١٦) .

ويجيء الباب السابع ، وعنوانه « ذكر تنبكت ونشأتها » (وهو بداية الباب فى النص العربى) :

« فلنشأت على أيدى توارق (الطوارق) مقشرن فى أواخر القرن الخامس من الهجرة ... ثم اختاروا موضع هذه البلدة الطيبة الطاهرة الزكية ذات بركة ونجعة وحركة التى هى مسقط رأسى ، وبغية نفسى ، ما دنستها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان ، مأوى العلماء والعابدين ، ومألف الأولياء والزاهدين ، مدعوة تنبكت فى لغاتهم العجمية (معناها المقدة فى الخشبة أو فى عروق الجسم ،

وقد جاء بحاشية فى المخطوط A أنها ترد هنا بمعنى العجوز) . . . وكان التسوق فى بلد بير (Biro أى ولاتة ، أو إيوالاتن كما ذكرها ابن بطوطة) وإليه يرد الرفاق من الافاق وسكن فيه الاختيار من العلماء والصالحين وذوى الأموال من كل قبيلة ومن كل بلاد من أهل مصر ووجل (أوجلة Audjela جنوبى بنغازى) وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتفلالة وفاس وبيط إلى غير ذلك ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلا قليلا حتى استكملوا فيه وزيادة من جميع قبائل الصنهاجة بأجناسها فكانت عمارة تنبكت خراب بير » (ص ٢٠ ، ٢١) .

وعنوان الباب الثامن « تعريف التوارق » ، (وهو بداية هذا البـاب فى النص العربى) :

« ... هم السوفة ينتسبون إلى صنهاجة وصنهاجة يرفعون أنسابهم إلى حمير كما فى كتاب الحلل الوشية فى ذكر أخبار المراكشية ... وهم ظواعن فى الصحراء رحالة لا يطمئن بهم منزل ليس لهم مدينة يأوون إليهـا ومراحلهم فى الصحراء مسيرة شهرين مابين بلاد السودان وبلاد الإسلام وهم على دين الإسلام وأتباع السنة وهم يجاهدون السودان وصنهاجة ...» (ص ٢٥) .

ثم تتتابع الأبواب بعد ذلك : الباب التاسع (ص ٢٧ وما بعدها) ، وعنوانه : « ذكر بعض العلماء والصالحين الذين سكنوا مدينة تنبكت » ؛ الباب العاشر (ص ٣٧ — ٥٦) ، وعنوانه « نبذة من كتاب الذيل لأحمد بابا » :

«وفى كتاب الذيل للعلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله قال أحمد بن عمر بن محمد اقيت بن عمر بن على بن يحى بن كدالة الصنهاجى التنبكتى جدى والد الوالد يعرف بالحاج أحمد أكبر الأخوة الثلاثة ...» (ص ٣٧) .

ثم الباب الحـادى عشر (ص ٥٦ — ٦٣) ، وعنوانه « ذكر ائمة المسجد الجامع ومسجد سنكرى » .

ويتناول الباب الثانى عشر (٦٤ — ٧١) « ذكر الظالم الأكبر سن على » ، ويبدأ بالعبارة التالية :

« أما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر سن على برفع السين المهملة وكسر النون المشددة كذا وجدته مضبوطاً فى ذيل الديباج للعلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله تعالى فإنه كان ذا قوة عظيمة ومتنة جسيمة ظالماً فاسقاً متعدياً متسلطاً سفاكاً للدماء قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال ... » (ص ٦٤) .

ومن بعده الأبواب الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والعشرون (ص ٧١ — ١٣٦) ، وتتناول على الترتيب : « ذكر أمير المؤمنين اسكيا الحاج محمد بن أبى بكر » ، « ذكر اسكيا موسى واسكيا محمد بنكن » ، « ذكر اسكيا اسماعيل ابن اسكيا الحاج محمد » ، « ذكر اسحاق ابن اسكيا الحاج محمد » ، « ذكر اسكياداوود وغزواته » ، « ذكر اسكيا الحاج بن اسكيا داوود » ، « ذكر محمد بان ابن اسكيا داوود » ، « ذكر اسكيا اسحاق بن اسكيا داوود » .

وفى الباب الواحد والعشرين (ص ١٣٧ - ١٤٩) يتناول السعدى بداية أحداث الحملة المراكشية ، وعنوانه « ذكر مجىء الباشاجودر إلى بلاد السودان » .

وفى الباب الثانى والعشرين (١٤٩ - ١٦٢) ، وعنوانه « ذكر أسر الاسكيا محمد كاغ » ، يتناول إلى جانب تاريخ اسكيا محمد كاغ تاريخ اسكيا محمد نوح وفتنة جنى .

ويفرد السعدى الباب الثالث والعشرين (ص ١٦٤ — ١٦٧) وعنوانه « ذكر حروب الباشا محمود بن زرقون » ، لتاريخ حكام جنى ومهاجمة الطوارق

لتمبكتو ، أما الباب الرابع والعشرين (١٦٨ – ١٨١) فيتناول فيه المحاربة مع اسكيا نوح ووفاة الباشا محمود بن رزقون والحملة على ماسنة، وعنوانه « ذكر الباشا محمد طابع » . والباب الخامس والعشرين (١٨١ –١٨٢) عنوانه « ذكر الباشا عمار » ، ويتحدث إلى جانب ذلك عن محاربته لماسنة . وفى الباب السادس والعشرين (١٨٤ – ١٨٩) يؤرخ لسلاطين ماسنة ، وعنوانه « ذكر بلاد ماسنة » ، ثم يخصص الباب السابع والعشرين (١٨٩ – ٢٠١) « لذكر الباشا سليمن والباشا محمود لنك » .

وفى الباب الثامن والعشرين (ص ٢٠٢ – ٢٠٨) يتناول « ذكر أفات وحن فى مدينة مراكش » ، ويرد بهذا الباب لأول مرة ذكر كتاب الخبر الذى أشرنا إليه فيما سبق : « وقد تقدم أن دخول الفقهاء أولاد سيد محمود فى مدينة حمراء مراكش هو فتح أبواب البلاء لها وذكر فى الخبر أنهم أدركو فيها اسارى النصارى يستخدمون يدخلون ويخرجون ... (ص ٢٠٢)

ويقدم لنا السعدى فى الباب التاسع والعشرين ص (٢٠٩ – ٢١٠) « نبذة فى تاريخ الملوك السعدية » ، وفيه يتحدث عن « أمر مولانا زيدان سلطان مراكش مع السورى » . وفى الباب الثلاثين (ص ٢١٠ – ٢١٩) يتحدث السعدى عن مولدة ، وقد أوردت فيما سبق اقتباسا بهذا الصدد ، وعنوان هذا الباب « ذكر الوفيات والتواريخ لبعض الأجناد والفقهاء والإخوان من مجيء الباشا جودر إلى عام ١٠٢١ » (١٥٩١ – ١٦١٣ م) .

وفى الباب الواحد والثلاثين (ص ٢٢٠ – ٢٣٠) يورد السعدى تحت عنوان « ذكر الباشوات من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٠٣٩ » (١٦١٣ – ١٦٢٩ م) نبذا عن الباشوات والقادة على بن عبد الله التلمسانى ، وأحمد بن يوسف العلجى ،

وحد بن يوسف الأجناسى ، وحم ابن على الدرعى ، ويوسف بن عمر القصرى ، وابراهيم بن عبد الكريم الجرارى ، وعلى بن عبد القادر .

وفى الباب الثانى والثلاثين (ص ٢٣٩ - ٢٣٢) يحدثنا السعدى عن رحلة الوساطة التى قام بها إلى ماسنة ، والتى أشرنا إليها فيما سبق ، وعنوانه « سياحة مؤلف الكتاب فى بلاد ماسنة » . وفى الباب الثالث والثلاثين (ص٢٣٢ - ٢٣٧) يرد « ذكر الباشوات من عام ١٠٣٩ إلى عام ١٠٤٢ » (١٦٢٩ - ١٦٣١) ، ويحدثنا عن الباشا على بن عبد القادر وحروبه ضد كاع ووفاته .

وفى الباب الرابع والثلاثين (ص ٢٣٧ - ٢٤٧) يجىء « ذكر الوفيات والتواريخ من عام ١٠٢١ إلى عام ١٠٤٢ » (١٦١٢ - ١٦٣٢) . وفى الباب الخامس والثلاثين (ص ٢٤٧ - ٢٩٣) يجىء « ذكر الباشوات من عام ١٠٤٢ إلى ١٠٦٣ » (١٦٣٢ - ١٦٥٢ م) ، ويحدثنا السعدى عن الحملة على ماسنة . وفى الباب السادس والثلاثين (ص٢٩٤ - ٣٠٣) يورد السعدى « ذكر الوفيات والتواريخ من عام ١٠٤٢ إلى عام ١٠٦٣ » (١٦٣٢ - ١٦٥٣ م) .

ونجد فى الباب السابع والثلاثين (ص ٣٠٣ - ٣١٤) « ذكر من تولى أمور البلاد من السودانيين من مجىء الباشا جودر إلى عام ١٠٦٣ » (١٥٩١ - ١٦٥٣م) . ويختتم السعدى تاريخ السودان بالباب الثامن والثلاثين (ص ٣١٥ - ٣٢٣) الذى أضافه فى عام ١٠٦٥ هـ (١٦٥٥م) بعد انقطاع قارب الثلاث سنوات ، وبهذا تنتهى أحداث الكتاب عند تاريخ ١٦ جمادى الأولى ١٠٦٥ (١٢ مارس ١٦٥٥) ، كما أوضحنا فيما سبق ، وعنوان هذا الباب الأخير « تاريخ السودان من عام ١٠٦٣ إلى عام ١٠٦٥ » .

المراجع

١ — دائرة المعارف الإسـلامية ، الطبعة العربية القديمـة ، مادتا السعدى وسـنناى .

٢ — تاريخ السودان ، وترجمة الفرنسية ، ومقدمة الترجمة الفرنسية .

٣ — محمود كعب ، تاريخ الفتاس فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس .

٤ — الحاج سعيد وآخر ، تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان .

٥ — ك . مادهوبانيـكار ، The Serpent and the Crescent ، A History of the Negro Empires of Western Africa ، دار آسيا للنشر ، بومباى ، كلكتا ، نيودلهى ، مدراس ، لندن ، نيويورك ، ١٩٦٣ .

٦ — الدكتور عبد الرحمن زكى ، المراجع العربية للتاريخ الإسلامى فى غرب أفريقيا ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مستخرج من المحاضرات العامة — الموسم الثقافى ٦٧ / ١٩٦٧ .

٧ — الدكتور عبد الرحمن زكى ، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، الألف كتاب ، رقم ٣٨٤ ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ، ١٩٦١ .

٨ — الدكتور حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة فى أفريقية ، الجزء الأول ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ .

٩ ـــ ا. و بوفل ، الممالك الإسلامية فى غرب أفريقيا وأثرها فى تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى The Golden) Trade of the Moors ، ترجمة الدكتور زاهر رياض ، مكتبه الأنجلو المصرية ، ١٩٦٨ .

١٠ ـــ ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، المطبعة الأزهرية بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م) .

١١ ـــ برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد بن فرحون التعمرى ، الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، وبهامشه نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، للعالم أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت عرف ببابا التنبكى ، الناشر عباس بن عبد السلام بن شقرون ، بالفحامين بمصر ، الطبعة الأولى ـــ سنة ١٣٥١ هـ .